معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن وفي الأدب

الدكتور علي كمال الدين محمد الفهادي
كليـة الآداب - جامعـة الموصـل

لفتت نظري قصيدة في ديوان حسان بن ثابت يعاتب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم فتساءلت: أتجوز معاتبة الرسول وهو لا ينطق عن الهوى؟ وهل يقبل العتاب من أصحابه؟ ثم أجلت النظر والخاطر في شعر صدر الإسلام ونثره، فتذكرت عتاب الأنصار بشأن غنائم حُنَيْنْ واستجابة الرسول الكريمة لذلك العتاب، فتاقت نفسي لدراسة هذا اللون الأدبي على ندرة نصوصه، وذهبت أبحث في كتاب الله عز وجل، فصدرت عن آيات يعاتب الله فيها نبيه صلوات الله وسلامه عليه، فعقدت العزم على دراسة الموضوع، ورحت أفتش عن مفهوم «العَتْبِ» في اللغة والاصطلاح مجيلاً النظر في بطون المعاجم والتفاسير. وسأدرس آيات العتاب في القرآن الكريم لأرى تدرّجه الأسلوبيّ فيها بين الرقة والشدة، ولأكشف عن مدى تأثر العتاب الأدبي بأسلوب العتاب القرآني، وأرى موقف النبي صلى الله عليه وسلم من العتاب الأدبيّ قبولاً ورفضاً.

العتاب لغةً

يخرج المرء بعد بحثه في معجمات اللغة بمفهوم للعتب يجعله أدنى درجات اللوم وأخفّ مراجعة المتواجدين. فالمعاتبة دون اللوم عند الهمذاني، فهو يوردها في باب اللوم بقوله: «يقال: لمت الرجل لوماً وعذلته عذلاً، وأنّبتُهُ تأنيباً، وقرعتُهُ تقريعاً، وفنّدته تفنيداً، ووبختُهُ توبيخاً، وبكّتُهُ تبكيتاً، ولحيتُه لحياً، وعنّفتُهُ تعنيفاً. فهي المعاتبة ثم اللوم ثم التقريع ثم التوبيخ ثم التأنيب»(١). فالمعاتبة أخفُّ ما يكون عليه اللوم. و«العتبُ» عند ابن فارس «الموجدَة» يقول: «العتبُ الموجدَة، تقول: عتبت على فلان عتباً ومعتبةً، أي وَجَدْتُ عليه ثم يشتق منها فيقال: أعتبني، أي ترك ما كنت أجد عليه ورجع إلى مسرتي»(٢) ويورد الجوهريّ قول الخليل: «العتابُ مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدَة.. يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب. وأعتبني فلان، إذا عاد إلى مسرتي راجعاً عن الإساءة، والاسم منه العُتْبى.. تقول: استعْتَبْتُهُ، فَأَعْتَبَني، أي استَرْضيتُهُ فأرضاني»(٣). والمعاتبة عند الفيروز آبادي تواصُفُ الموجدة، يقول: «العتبُ الموْجدَة.. والمعتَبَةُ والملامَةُ كالعتاب والمعاتَبَة.. والمعاتَبَةُ: تواصُفُ الموجدَة ومخاطبةُ الإدْلال»(٤). وينقل ابن منظور قول الأزهري: «التَعَتُّبُ والمعاتَبَةُ والعتابُ: كل ذلك مخاطبةُ الإدْلال وكلام المُدِلِّينَ أخلاَءَهُم، طالبين حسن مراجعتهم، ومذاكرة بعضهم بعضاً ما كرهوه مما كَسبهم الموجدَة»(٥). «وعاتَبَهُ معاتَبَةً وعِتاباً: كلّ ذلك لامَهُ، قال الشاعر:

أعاتبُ ذا المودّة من صديقٍ
إذا ما رابني منهُ اجْتناب
إذا ذهبَ العتابُ، فليس وُدٌّ
ويبقى الودُّ ما بقيَ العتاب»(٦)

فحصيلة المفهوم اللغوي للمعاتبة تَبنى على علاقةٍ تقوم بين اثنين، لبُّها المودة والصداقة والحبّ، وقشرها موجدة تزيلها المصارحة والمراجعة.

نجد في كتب تفسير القرآن الكريم اشتقاق فعل مبني للمجهول ورد على صيغة الاستفعال من مادة «العتب» في تفسير قوله تعالى: ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون﴾(٧). وقد قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: «الاستعتاب طلب العتاب، والرجل يطلب العتاب من خصمه إذا كان على جزم أنه إذا عاتبه رجع إلى الرضا، فإذا لم يطلب العتاب منه دلّ على أنه راسخ في غضبه وسطوته»(٨) فالرازي يجلو لنا حقيقة مهمة ينبني عليها العتاب والمعاتبة، ألا وهي الرضا المرجوّ من العتاب والمودة الملتمسة من المعاتبة ليحيل الكدر. ويقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ولاهم يستعتبون﴾: «يعني يسترضون، أي لا يكلفون أن يُرضوا ربهم، لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون. وأصل الكلمة من العَتْبِ وهي الموجِدَة، يقال: عتب عليه يُعتِبُ إذا وَجِدَ عليه، فإذا فاوضه ما عتب عليه فيه قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعْتَبَ، والاسم العُتبَى وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب. قاله الهرويّ(٩) وقال النابغة الذبياني(١٠):

فإن أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمتَه
وإن تكُ ذا عُتبى فمثلك يُعتب

العتاب اصطلاحاً

أسفر البحث في معاجم اللغة وكتب التفسير عن حقيقة المعاتبة التي تقوم على أساس من الحرص على استمرار المحبة أو الصداقة أو الرضا بعد حصول ما يكدِّرها وينغِّصها، فإذا حصلت المعاتبة زال الكدر وصفت النفس وسكنت إلى الحب والصداقة والمودة. ولم يقبل «الاستعتاب» في القرآن الكريم من الكافرين، لأن فرصتهم في التوبة قد أفلت في الحياة الآخرة، وقد زال ميدان العمل بزوال الدنيا وفنائها، وجاء اليوم الحق فتجزى كل نفس بما

قدمت وكسبت في حياتها الأولى، وليس ثمة رجعة إليها من الآخرة، وليس ثمة عتبٌ واستعتاب للكافرين ذلك أنهم منحوا كل فرص التوبة في حياتهم الدنيا، فاستنفدوها ضالين.

أولاً : العتاب في القرآن الكريم

عاتب الله جل شأنه نبيّه الكريم وحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم غير مرة في القرآن الكريم فهو سبحانه خالق النبي صلى الله عليه وسلم وبارىء نسمته على خلق كريم، وقد عاتبه لأمته، وعاتبه لنفسه وأهله، وعاتبه لصحبه وعاتبه لدعوته.

وفي كل عتاب درس للأمة والإنسانية فرداً ومجتمعاً، قبائل وشعوباً، تسير البشرية على هديه، وتنهج نهجه.

وقد تدرج العتاب من اللطف واللين الذي يسبقه العفو إلى العتاب اللين الذي يتلوه العفو، فالعتاب الرادع ثم الشديد.

وكان التدرج على هذا النحو في الآيات الكريمة التالية:

١ - قال الله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ (١١).

عندما أراد الرسول - صلوات الله عليه - الخروج للجهاد في غزوة «تبوك» استأذنه المنافقون وتعللوا بالعلل ليقعدوا عن الجهاد، فأذن لهم: «أخرج ابن جرير عن عمرو عن ميمون الأزدي، قال: اثنتان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشيء، إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسارى. فأنزل الله: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم..﴾ الآية (١٢).وهذه الآية يعجّل فيها الله العفو لحبيبه ويقدم له الصفح قبل أن يعاتبه باستفهام رقيق هادىء رفيق

﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم..﴾

ويقدم له ولأمته الدرس البليغ والنهج الذي يصاغ بموجبه المجتمع المتماسك المتحد، مجتمع كل فرد فيه واضح الموقف والقصد والهدف، مجتمع يكشف ادعاء المدعين ومراء المرائين الذين يعلنون اعتناق المبادىء والعقيدة ولا يقاتلون في سبيلها(١٣). فهذا العتاب من أجل الأمة لتكشف في حاضرها ومستقبلها كل الفئات المزيفة التي تتشدق بالمبادىء ولا تحارب دفاعاً عنها.

٢ - وقال سبحانه: ﴿يا أيّها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾(١٤).

يبين السيوطي سببين لنزول هذه الآية الأول: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة [ماريّة القبطية] يطؤها فلم تزل به حفصة حتى جعلها على نفسه حراماً»(١٥). والثاني أن الرسول عليه الصلاة والسلام «كان يشرب عند سودة(١٦) العسل. فدخل على عائشة. فقالت: إني أجد منك ريحاً. ثم دخل على حفصة فقالت مثل ذلك. فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، والله لا أشربه، فنزلت «يا أيها النبي..»(١٧). وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني (- ٨٥٢ هـ): «يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معاً»(١٨). فهنا يعاتب الله جلّ شأنه نبيّه وصفيه لنفسه ولأهله، ليجعل من هذا العتاب سنة للمؤمنين، تحجزهم عن حرمان النفس مما أحل الله لها ابتغاء مرضاة الزوج والأهل، ذلك أن حرمان المرء نفسه من متع الدنيا التي أحلها الله له قد تدفع به إلى بغض من كان السبب في دفعه إلى العزوف عنها، وعندها قد تحدث ثلمة للشروط التي اشترطها الله سبحانه للزواج السليم بقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (١٩). ان الاسرة السعيدة القوية

المتماسكة أس المجتمع الإسلامي، يقوم عليها بناؤه وتقام عليها دعائمه ويشاد بها صرحه، وقد كان العتاب الإلهي رقيقاً هادئاً يصور لنا الجوّ الذي يريده الإسلام للأسرة، جوّاً رقيقاً مبنياً على حوار، لبه الهدوء والتفاهم والتفاوض، وقد بني هذا العتاب على الاستفهام المؤثّر الرقيق: ﴿يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ وهو استفهام يشبه استفهام العتاب السابق في سورة التوبة ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم..﴾ غير أنه سبق بالعفو وجاء الاستفهام هنا {لم تحرّم..﴾سابقاً للعتاب مشفوعاً بالعفو ﴿والله غفور رحيم..﴾. ولا يخرج الأمر إلى التحريم الشرعي؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم «لم يكن حرّم العسل أو ماريّة (٢٠) بمعنى التحريم الشرعي، إنما كان قد قرر حرمان نفسه فجاء هذا العتاب يوحي بأنّ ما جعله الله حلالاً فلا يجوز حرمان النفس منه عمداً وقصداً إرضاءً لأحد.

والتعقيب بعبارة ﴿والله غفور رحيم﴾ يوحي بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته، وهو إيحاء لطيف»(٢١). فهذا العتاب للنفس والأسرة، وهو درس يصوغ الحرية في دائرة ما أباح الله للمرء في بيته وأسرته.

٣ - وقال سبحانه: ﴿عبس وتولّى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعلّه يزكّى، أو يذكّر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى، فأنت له تصدّى، وما عليك ألاّ يزكّى، وأما من جاءك يسعى، وهو يخشى فأنت عنه تلهّى، كلا إنها تذكرة، فمن شاء ذكره، في صحف مكرّمة، مرفوعة مطهّرة، بأيدي سفرة، كرامٍ بررة، قتل الإنسان ما أكفره﴾(٢٢).

وقد نزلت هذه السورة كما أورد ابن هشام لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقف مع الوليد بن المغيرة ويكلّمه طمعاً في إسلامه، «فبينما هو في ذلك إذ مرّ به ابن أم مكتوم الأعمى، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل يستقرئه القرآن، فشقّ ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أضجره، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد، وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه. فأنزل الله تعالى فيه: «عبس وتولّى..» إلى قوله «في صحف مكرّمة مرفوعة مطهّرة»(٢٣).

هذا العتاب يبني منهج العلاقة بين النبي صاحب الدعوة وأصحابه والناس الآخرين، فرسالة الإسلام للناس كافة، بيد أن الحرص على كسب الناس ودخولهم الإسلام يجب ألاّ يكون على حساب السابقين فيه، فما ينبغي أن نقبل على المرء كافراً وننصرف عنه إذا أسلم وما أرسل الله رسالته إلى طبقة من الناس دون أخرى، خاصة وأن مادة الإسلام في أغلبها من فقراء الناس لا من مترفيهم، بدليل قوله تعالى على لسان المشركين: «وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي»(٢٤) وفي محاورتهم لنوح عليه السلام قالوا له: «أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون»(٢٥).

عاتب الباري سبحانه نبيّه بقوله: «عبس وتولّى..» مستعملاً ضمير الغائب لا المخاطب. «وفي هذا الأسلوب إيحاء، بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب سبحانه أن يواجه به نبيّه وحبيبه. عطفاً عليه ورحمةً به، وإكراماً له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه » (٢٦).

ثم يهدأ العتاب بالالتفات من الحكاية عن ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب باستفهام، فيه عتاب ﴿وما يدريك لعلّه يزكّى أو يذكّر فتنفعه الذكرى﴾. وتعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته، وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب {أما من استغنى، فأنت له تصدّى وما عليك ألاّ يزكّى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهّى﴾. ويسمي الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير النقيّ تلهياً.. وهو وصف

شديد»(٢٧).

ويعنف أسلوب العتاب ويشتد «وللمرة الوحيدة في القرآن كلّه يقال للرسول الحبيب القريب: ﴿كلاّ﴾ وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب! ذلك أنه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين»(٢٨). فهذا العتاب في أصحاب رسول الله ودعوته، وهو تدرج إلى العتاب الخالص الذي لم يسبق، لم يتبع بعفو، بل ختم بما يفيد الردع. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يهشّ لابن أم مكتوم، ويرعاه، ويقول له كلما لقيه: «أهلاً بمن عاتبني فيه ربي». وقد استخلفه مرتين بعد الهجرة على المدينة(٢٩).

٤ - وقال جلّ شأنه: ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾(٣٠).

نزلت هاتان الآيتان في أسارى بدر عندما استشار الرسول صلى الله عليه وسلم الناس في شأن الأسرى، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه، فقام أبو بكر فقال: نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء. فعفا عنهم وقبل منهم الفداء»(٣١).

عاتب الله نبيه الكريم، فقرر قاعدة عامة للدعوة، تمنع المسلمين من فداء الأسرى قبل أن تقوى شوكتهم وتترسخ أقدامهم في الأرض سيطرةً وثباتاً وينفوا عدوهم من أرضهم، ومن ثمّ يحق لهم أن يفادوا أسراهم؛ ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾. ثم يلتفت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أشار عليه بالمن والفداء وأخذ المغانم(٣٢) فيخاطبهم مخاطبة الحاضر، يقول: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ أي التمتع بعاجلها من المغانم والفداء خلافاً لما يريده الله جل شأنه من قتلهم لإظهار الدين الذي تدرك به الآخرة ﴿والله يريد الآخرة﴾. ويتدرج العتاب ويعنف فيستحيل وعيداً بعذاب عظيم، لولا أن الله قد كتب على نفسه أن لا يؤاخذ الناس إلا بعد نهي وأمر وإقامة حجّة، ولم يك قد نهاهم(٣٣) ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾.

ففي هذا العتاب درس للأمة كي لا تشري دنياها بآخرتها فتخسر الأولى والثانية، وهذا أعنف عتاب عاتب الله به رسوله الحبيب، لأنه تضمن تهديداً ووعيداً بعذاب عظيم.

وبعد فقد تدرج أسلوب العتاب في القرآن الكريم من الرقة واللطف إلى العنف والشدة فجاء على الصيغ الآتية:

١ - عتاب ليّن رقيق يسبقه العفو: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾.

٢ - عتاب لين رقيق يتبعه العفو: ﴿يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحل الله لك.. والله غفور رحيم﴾.

٣ - عتابٌ شديد مشفوع بتنبيه رادع ﴿كلاّ إنها تذكرة....﴾.

٤ - عتاب شديد مشفوع بالتهديد والوعيد بعذاب عظيم ممتنع ﴿ولولا كتابٌ من الله سبق لمسَّكُم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾.

لقد كان العتاب كله من أجل الأمة فرداً ومجتمعاً، فأما الأول فدرس يمتحن المسلم بالجهاد، فإن لبّى نداءه فقد اهتدى، وإن تخاذل فقد غوى. وأما الثاني فيرسم حرية رب الأسرة في إطارها الحلال تلمساً لحياة ساكنة في ظلال المودة والرحمة. وأما الثالث فلبناء منهج سليم ينظم العلاقة بين الدعاة والمدعوين في الإسلام، وأما الرابع فلترسيخ أقدام الأمة على الأرض كلما مسها وهن أو نابتها نائبة.

وقد كان العتاب الرحماني موجزاً قصيراً في لفظه عظيماً في معانيه كالنور ينبثق من نقطة فيضيء الأرض والفضاء الرحيب، وقد حق هذا العتاب وجاز لأنه عتاب الخالق لمخلوقه وحبيبه وصفيّه، فهل يصح عتاب الرسول من البشر

نثراً أو شعراً؟ وهل يقبله الرسول صلى الله عليه وسلم من الناس بعد أن قبله من ربّه؟ نرجو أن نوفق في جلاء الإجابة عن ذلك فيما يأتي من النثر والشعر.

ثانياً : العتاب في الأدب

أ - في النثر :

قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه عتاب ربه واستجاب له بأدب وقناعة وسمو عبودية للخالق وطاعة من المخلوق، وقد عاتبه صحبه ففاوضهم ورجع إلى إرضائهم، والإنسان يعاتب الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه لا يرى ما يراه النبي، ولا يعرف ما يعرفه، فقد وضع الله في خلق الرسول وخلقه من فضائل القوة والعقل والحكمة وحسن السيرة والمعاشرة ما يؤهله لحمل الرسالة ويبوئه قيادة الدعوة؛ فقال تعالى: «وإنك لعلى خلق عظيم»(٣٤)

وقال سبحانه: «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك»(٣٥).

وفضلاً عن هذا الطبع الذي جبل عليه، والخلق الذي فطر عليه والسيرة التي سارها في قومه، كان الصادق الأمين فيهم، فقد بصّره الوحي بما لم يُبصر، ونبّأه بما لم يعلم، فكان يرى عين اليقين خلافاً للإنسان العادي الذي لن يبلغ مهما بلغ عظمة شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بمعزل عن الوحي. فكيف والوحي يكتنف رؤيتها ويكشف عنها الحجب؟

ومن هذا القصور البشري الذي لا يدرك عظمة الرسول الإنسان وعظمة الرسول النبي، كان عتاب الناس للنبي صلى الله عليه وسلم،

وكان عتاب المؤمنين له، وكان العتاب للدنيا بمعزل عن الآخرة وكان الرسول ينظر إلى الدنيا من خلال الآخرة، وإلى الحاضر من خلال المستقبل الذي سيؤول إليه، وقد لجأ قليلون إلى معاتبة الرسول صلوات الله عليه - ابتغاء دنيا يصيبونها - لحبهم إيّاه وحرصهم على محبته وإيماناً منهم بسعة صدره وعدله وحلمه الذي وسع الأمة كلها أفراداً وجماعات؛ قال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾(٣٦).

كان العتاب الذي وصل إلينا في النثر نزراً يسيراً فالرسول صلى الله عليه وسلم، لم يأت في حياته ما يستلزم العتاب، وما ورد منه بشأنه من الناس كان منطوياً على قصور في نظرة أولئك الناس إلى موقف الرسول وسلوكه، وسنعرض لهذا القليل ثم ندرس استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لعتاب الأنصار وإجابتهم معاتبة بمعاتبة حتى ندموا فتراضيا.

عاتب الأنصار الرسول بشأن غنائم يوم حُنَين بعد فتح مكة، إذ «لما كان يوم حُنَين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقي وحده فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال: يا معشر الأنصار. قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك. ثم التفت عن يساره فقال: يا معشر الأنصار. قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، فنزل، فقال: أنا عبد الله ورسول الله، فانهزم المشركون، فأصاب يومئذ غنائم كثيرة، فقسم في المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئاً، فقالت الأنصار: إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا، فبلغه ذلك، فجمعهم فقال: يا معشر الأنصار»(٣٧). وقالت الأنصار أيضاً وفي اليوم نفسه: «والله إن هذا لهو العجب، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش وغنائمنا ترد عليهم»(٣٨). وقال قائلهم: «لقد لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل

العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: فاجمع لي قومك.. فلما اجتمعوا له.. قال: يا معشر الأنصار..»(٣٩).

فعتاب الأنصار ورد في ثلاث عبارات أجملها سعد بن عبادة في النهاية أمام رسول الله.

وكانت الأولى قولهم: «والله إن هذا لهو العجب، إن سيوفنا لتقطر من دماء قريش وغنائمنا تُردُّ عليهم». فهم يعلنون دهشتهم وحيرتهم من فعل الرسول إذ يعطي آخر الناس إسلاماً ويحرم أول الناس إسلاماً، ويستعمل قائلهم التقابل في تفسير العجب والدهشة بين «إن سيوفنا لتقطر من دماء قريش»، و«وغنائمنا ترد عليهم».

وكانت الثانية قولهم: «إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطى الغنيمة غيرنا». أخذتهم الدهشة من حرمان الرسول إيّاهم، وهو الذي اعتاد أن يكرمهم، ويتساءلون عن سر هذه المفارقة بين دعوتهم عندما هرب الطلقاء وقسمت الغنائم في سواهم ومنهم الهاربون، وقد عبروا عن ذلك بأسلوب الشرط وجوابه: «إذا كانت شديدة فنحن ندعى»، وبالتقابل الدلالي بين معنى الجملتين «إذا كانت شديدة فنحن ندعى» «ويعطى الغنيمة غيرنا».

وكانت الثالثة قولهم: «لقد لقي والله رسول الله قومه». فقد رأوا عاتبين أن الرسول آثر قومه عليهم بالغنائم لقرابته فيهم، فظنوا مساساً بعدالته - حاشاه - فعبّروا عن ذلك مؤكدين باللام الموطئة للقسم التي اقترنت بقد مشفوعة بالفعل الماضي متبوعة بالقسم بالله عز وجل.

ثم يحمل سعد بن معاذ عباراتهم الثلاث ويصوغها برفق وهدوء فيقول: «إنّ هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء».

لقد أجمل سعد موجدتهم بسبب ظنهم بإيثار الرسول قومه، وإغداق العطايا في قبائل العرب دون الأنصار، جمع سعد مقابلاتهم في الأسلوب بمقابلة واحدة بين «قسمت في قومك» و«ولم يك في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء». ونلمح في قول سعد بن معاذ توكيداً على حرمان الأنصار يلوح في التركيب الاسمي للجملة المؤكدة بإنَّ، التي ورد خبرها جملة فعلية مسبوقة بقد التحقيقية، كما يلوح بتكرار صيغة الفعل الماضي أربع مرات «صنعت، أصبت، قسمت، أعطيت». كانت عبارات العتاب الثلاث بعيدةً عن مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن سعداً جمعها، وقرّبها، وعرضها على الرسول صراحة ومواجهة، ليسمع الجواب ويعرف البيان، إيماناً منه بعدالة الرسول واعتزازاً بحرية القول وحب نبيّه حباً عميقاً، يخشى أن يمسَّ صفوه بشائبة تكدره.

يعتب الأنصار وعيونهم تنظر إلى الدنيا ونفوسهم ترى الماضي والحاضر ويغيب عنّا وعنهم المستقبل. ويقبل الحبيب اللبيب العتاب متسائلاً عن الخبر الذي بلغ مسامعه مندهشاً من تفكير الأنصار بالدنيا، وهم الذين وهبوها لإخوانهم المهاجرين فقاسموهم التمرة والحصير والرغيف، وهم الذين اشترى الله دنياهم بآخرتهم بأن لهم الجنة، فيقول لهم بأسلوب العارف بداء الكلام وأدوائه، ومصادره وموارده، بمعان ظاهرة مكشوفة، قريبة معروفة عند أحبائه الأنصار: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجِدة(٤٠) وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة(٤١) فأغناكم الله، وأعداءً فألّف بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ(٤٢) وأفضل»(٤٣).

إن الرسول يجيب العتاب بعتاب للذكرى، فيذكر الأنصار بأفضل غنائمهم التي غنموها في الإسلام، وهي هجرته إليهم،فقد كانت الهجرة بفضله هداية وغنى وأخوّة لهم، يعاتبهم

باستفهام منفيّ للتقرير، فتنفعهم الذكرى فيقولون: «الله ورسوله أمنّ وأفضل»، وكأنهم ندموا على ما بدر منهم من عتاب بعد أن ذكّرهم الرسول صلوات الله عليه بفضله وفضل الله عليهم. وكأنه صلوات الله عليه لا يريد أن يراهم حزانى كاسفين نادمين فيسألهم: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل. قال صلى الله عليه وسلم: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك ومخذولاً(٤٤) فنصرناك وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك»(٤٦). لقد منّ عليهم أن هداهم الله وأغناهم وألّف بين قلوبهم على يديه في بداية خطبته، ثم وازن بين موقفه منهم وموقفهم منه بعد أن أقرّوا بفضل الله ورسوله ومنِّهما عليهم، فذكر صلى الله عليه فضلهم على الإسلام ودعوته ونبيّه يوم صدقوه ونصروه وآووه وآسوه مستعملاً أربع جمل مزدوجة في قوله: «فصدقناك، ونصرناك، فآويناك، فآسيناك» وتقوم موازنته في الموقف على معان متكافئة هي الهداية والغنى والتآلف في موقفه منهم والتصديق والنصرة والإيواء، والتأسي في موقفهم منه، فكان القاضي العدل بينه وبينهم، عرض رأيهم ورأيه في الدنيا بتوازن إسلامي جمع الفكرة والفن، ثم التفت إليهم ليكشف لهم ما غاب عنهم وما تأبّى تفسيره عليهم من قسمة الغنائم بين سواهم مذكّراً بأن الغنائم إنما هي دنيا، وما حالفهم عليها، وما آمن وآمنوا بالله من أجلها، وما أرادوا الحاضر، ولكن أرادوا الله والآخرة، فيدخل إلى قلوبهم متسللاً بلطف مستفهماً بالهمزة بأسلوب المعاتب: «أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة(٤٧) من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم»(٤٨).

وبعد أن يفسّر لهم ما التبس عليهم من تقسيمه الغنائم في سواهم من أنه أراد الآخرة ونشر الدعوة ليسلم الناس ويحسن إسلامهم بعد أن يتألفهم بالمال والعطاء، يفضي إلى الأنصار بثقته العالية بهم وبصدق إسلامهم الذي وكلهم إليه، يعود مستفهماً مرة أخرى استفهام العاتب المدلّ المحب: «ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟»(٤٩).

يوازن لهم مرة أخرى فيخبرهم أنه أعطى الناس الدنيا، وبشرهم بأن لهم الآخرة ممثلة برسول الله، ويطمئنهم بأنه لم يؤثر قومه كما ظن الظانون منهم، فلن يعود إلى مكة، ولكنه سيعود إلى أحبابه في المدينة. ويبلغ به صلى الله عليه وسلم الحماس وصدق القول والانفعال المحب المدلّ فيقسم بالذي نفس محمد بيده، والقسم هنا أثير عزيز عميق عند الأنصار، يجتمع فيه الإيمان والحب، الإيمان بالله والحب العميق لنفس رسول الله «فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار»(٥٠). إنه ليؤكد نفسه أنصارياً في القسم وفي السير في شعاب الأنصار دون شعاب سائر الناس.

ثم يعود ويستشعر الحب العميق للأنصار فيدعو لهم: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»(٥١). دعوة حب ورحمة من نبي الرحمة، لهم ولأبنائهم ولحفدتهم من بعدهم بعبارات ثلاث مزدوجة، ختمها جميعاً بالاسم المحبب إلى نفسه «الأنصار». لقد كرّر اسمهم فناداهم: «يا معشر الأنصار» أربع مرات، وذكرهم في خطبته فضلاً عن هذا النداء ست مرات، وما تبع هذا التكرار إلاّ من الحب وما زاد التكرار إلا من عمق ذلك الحب في نفس الرسول الطاهرة النقية.

وكان من أثر هذه الخطبة أن: «بكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله

قسماً وحظاً»(٥٢).

لقد عاتب الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل عتابهم، وعاتبهم فكان خير عاتب ومستعتب. وقد كان النثر الذي ورد فيه قول الأنصار كما أشرنا آنفاً قليلاً موجزاً، وبدا عليه تخيّر الكلام وحسن صوغه تأدباً وكياسة وفطنة في الحديث عن رسول الله صلوات الله عليه.

ب ـ العتاب في الشعر

عاتب ثلاثة شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم في قصائد قليلة، وفي حالات نادرة خاصة قياساً بالكم الكبير الذي وصل إلينا من الشعر في حياته الكريمة، وقد استجاب لذلك العتاب مدللاً على عظمة شخصيته التي وصفها القرآن الكريم وعرفتها الأجيال الإنسانية، وكانت تلك الحالات التي ورد فيها العتاب حالات إنسانية قد تبدو محقة في أثناء حاضرها وفي دائرة المعرفة التي يغيب عنها الوحي أو يغيب عنها تصوّر المستقبل والحياة الآخرة، فمن هذه الحالات:

١ - عتاب قُتيلة بنت النضر بن الحارث.

أسر المسلمون النضر بن الحارث يوم بدرٍ فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بقتله فقتله(٥٣)، وكانت ابنته قتيلة شاعرة محسنة، فكتبت للرسول صلى الله عليه وسلم منصرفه من بدر وذلك قبل إسلامها(٥٤)، وقدمت لقصيدتها برثاء أبيها(٥٥).

يا راكباً إنّ الأُثيل مظنّة
من صُبْح خامسةَ وأنت موفّق(٥٦)
أبلغ بها ميتاً بأن تحيّةً
ما إنْ تزال بها النجائب تخفق(٥٧)
مني إليك وعبرةً مسفوحةً
جادت بواكفها وأخرى تخنق(٥٨)
هل يسمعنّي النضر إن ناديته
أم كيف يسمع ميّت لا ينطق؟

ترسل الشاعرة التحية تلو التحية إلى أبيها مع الركبان، وتذري الدمع عبرات خانقة معلنة أسفها على موت أبيها الذي عطّل الموت حواسه، فصمّ عن سماع تحيتها، وأخرس عن الإجابة عليها، وتسأل سؤالين حزينين برقة وإشفاق منكرة فيهما سماع الميت ونطقه، وبعد أن توفّي حاجة نفسها من العبرات، وحق أبيها من الرثاء، تنتقل بذكاء إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لتمهّد ببيت من المديح لعتاب كريم حزين تسوّغه قرابة أبيها من رسول الله وتشير آسفة إلى تشقق صلة الرحم القديمة التي أبدلها الله برحم العقيدة مستثيرة الشفقة على أبيها إذ صورته أعزل يرسف في قيده متوجهاً نحو قتله(٥٩):

أمحمدٌ يا خير ضنء كريمة
في قومها والفحل فحلٌ معرق(٦٠)
ما كان ضرّك لو مننت وربما
منّ الفتى وهو المغيظ المحنِق(٦١)
أو كنت قابل فدية فلينفقن
بأعزّ ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابةً
وأحقّهم إن كان عتقٌ يُعتق
ظلّت سيوف بني أبيه تنوشه
لله أرحامٌ هناك تشقّق(٦٢)
صبراً يقاد إلى المنيّة متعباً
رسف المقيَّد وهو عانٍ موثق(٦٣)

وبعد هذا التصوير والوصف يهتز الرسول صلوات الله عليه هزة كريم فيعلن: «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه»(٦٤).

ومن كرم هذا العتاب ورقّته قال القدماء في هذه القصيدة وصاحبتها: «إن شعرها أكرم شعر موتورة وأعفّه وأكفّه وأحلمه»(٦٥).

غير أن هناك من صعّد هذه الحالة الإنسانية التي تؤكد حبّ الابنة لأبيها وحزنها وأسفها على فراقه إلى حالة من الصراع القبليّ تنطلق من هاجس الحرص على القبيلة «وهاجس القبيلة وروابطها لم يكن يطفو من خلال الصراع (بين المسلمين والمشركين) وإنما كان يخالط حتى حالات من العتاب، والقتيلة

بنت الحارث في رثاء أبيها وقد قتل في أسره ما يُلمح إلى ذلك»(٦٦) والحق أن الشاعرة أشارت إلى تشقق الأرحام وإلى القرابة بين أبيها والرسول صلى الله عليه وسلم لتسوغ عتابها.

لقد جاء أسلوب قُتيلة حزيناً مفعماً بالأسى، منطلقاً من إيمانها بقدرة الرسول الكريم على العفو والمن ووصل الرحم، وتمنت في نفسها لو أن قبل الرسول من أبيها الفداء كما قبله من أسارى بدر، ولكنها أمنيات مشركة تنطلق من حالة إنسانية تفيض بحب الأب المشفوع بالحزن والأسى واللوعة انطلاقاً من نظرة غاب عنها الإسلام والوحي والإيمان، وكانت الاستجابة الكريمة المتنعة «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه» تجاوباً مع العاطفة الإنسانية، وتخفيفاً أو غسلاً للضغينة من قلب الشاعرة، ويأتي هذا العتاب متسقاً مع لون العتاب الأول في القرآن الكريم، إذ سبق العفو العتاب في القرآن، وقدّمت الشاعرة للعتاب ببيت من المديح للرسول صلوات الله عليه.

٢ - عتاب العباس بن مرداس السُّلَمي:

أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم يوم حُنَيْن المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألف بهم قومهم.. وأعطى عيينة بن حصن الفزاري مائة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير.. وأعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها(٦٧)، فعاتب فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله(٦٨):

وكانت نهاباً تلافيتها
بكرِّي على المهر في الأجرُع(٦٩)
وإيقاظي القوم أن يرقدوا
إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبي ونهب العُبيد (م)
بين عيينة والأقرع(٧٠)
وقد كنت في الحرب ذا تُدْرأ
فلم أُعْطَ شيئاً ولم أمنع(٧١)
وكانت أفائل أعطيتها
عديد قوائمها الأربع(٧٢)

يوضح العباس لنا موقفه من نصيبه من الغنائم، مستنداً إلى عقلية جاهلية ترى أن يناسب نصيب المقاتل من الغنائم بلاءه في الحرب ودوره في القتال، وغاب عن تصوره ما وعد الله المجاهد في الآخرة من ثواب وحسن مآب، ذلك أنه حديث عهد بالإسلام، فهو ينظر إلى نصيبه ومكانه في الحرب من خلال ندّيه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري، وهو ينظر إلى حجم الغنائم التي ينالها من الرسول صلوات الله عليه على أنّها تمثل منزلته الاجتماعية التي يتبوّؤها بين المسلمين من خلال قوله(٧٣):

وما كانَ حصنٌ ولا حابسٌ
يفوقان مرداس في مجمع
وما كنتُ دون امرىء منهما
ومن تضع اليوم لا يرفع

لقد رأى الشاعر في نصيبه الذي هو دون نصيب أقرانه وأنداده من الفرسان غضّاً من شأنه، وتفضيلاً لأقرانه عليه(٧٤) وقد نبع هذا العتاب من نفس أعرابية دخلها الإسلام ولم يتعمقها الإيمان، {قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} (٧٥). وقد قبل الرسول صلوات الله عليه هذا العتاب بغير ارتياح، فقال: «اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه»(٧٦). فقطع اللسان كناية عن الإسكات، وهي كناية عن تجاوز عتاب الشاعر حدوده، وتهافت موقفه(٧٧)، وشتّان هنا بين قبول الرسول الكريم عتاب الأنصار وقتيلة وعتاب العباس، وقد استصفى الرسول صلوات الله عليه نفس الشاعر بزيادة نصيبه من الغنائم حتى عاد راضياً إليه، فقال له معاتباً باستفهام خارج إلى عتاب لا يخلو من تقريع: «أتقول فيّ الشعر؟ فجعل يعتذر إليه ويقول: بأبي أنت وأمي إني لأجد للشعر على لساني كدبيب النمل، ثم يقرصني كما يقرص النمل، فلا أجد

بدءاً من قول الشعر، فتبسّم صلى الله عليه وسلم وقال: «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين»(٧٨). وشتّان أيضاً بين العاطفة الرقيقة الحزينة الشفّافة التي صدر عنها شعر قتيلة والعاطفة الفجّة التي تفوح منها رائحة الطمع بالشاة والبعير التي نبع منها شعر العباس الذي لم يتأثر بأسلوب القرآن الكريم ليناً ورقة في العتاب.

٢ - عتاب حسان بن ثابت الأنصاري:

أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم ما أعطى في قريش وقبائل العرب، ولم يعط الأنصار شيئاً(٧٩) وقدّم خالد بن الوليد في غزوة الفتح في سليم وغيرها، وسار هو صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، فلما جعل سُليماً في المقدمة كرهت ذلك الأنصار فقال حسان(٨٠):

زادت همومي فماءُ العين ينحدر
سحّاً إذا غرّقته عبرة دِرر
وجداً بشعثاء إذ شعثاء بهكنة
حوراء لا دنسٌ فيها ولا خور
دع عنك شعثاء إذ كانت مودتها
نزراً وشرُّ وصال الواصل النزر

يبدأ شعر حسان بعاطفة يشوبها الحزن وتغرقها الدموع الغزيرة معبراً عن وجد عميق وحب أصيل طاهر نقي من الدنس والخَوَر، مصوراً العلاقة النقيّة الصافية التي تربط الرسول صلوات الله عليه بالأنصار، وينتقل إلى العتاب مبيناً سببه موضحاً دواعي حزنه:

واتِ الرسول فقل يا خير مؤتمنٍ
للمؤمنين إذا ما عُدِّلَ البشر
علام تدعى سليم وهي نازحةٌ
أمام قومٍ هم آووا وهم نصروا

إن حساناً يخشى أن يفسّر العتاب بموجدة أو فتور الحب، ولذلك يحتاط للأمر فيعلن أن الرسول صلوات الله عليه «خير مؤتمن للمؤمنين» من دون سائر البشر - وإنه لكذلك -

فالشعر يبدأ العتاب بالمديح على نحو ما فعلت قتيلة من قبل، ثم يسأل الرسول عن سر تقديم سليم على الأنصار مع أنها بدوية «نازحة» لم تقم معه في المدينة، وهي حديثة عهد بالإسلام. والأنصار أول الناس إسلاماً بعد المهاجرين، ويذكّر حسان الرسول بالآيات الكريمة التي نزلت بحق قومه الذين آووا ونصروا: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾(٨١)، ثم يذكره بمواقفهم ومشاهدهم في الله ورسوله الموقف تلو الموقف:

سمّاهم الله أنصاراً لنصرهم
دين الهدى وعوان الحرب تستعر(٨٢)
وجاهدوا في سبيل الله واعترفوا
للنائبات فما خافوا وما ضجروا(٨٣)
والناس ألب علينا فيك ليس لنا
إلاّ السيوف وأطراف القنا وزر(٨٤)

لقد كذب الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الأمر، ومن هؤلاء الناس سليم، وقف الأنصار بجانبه مصدقين مدافعين منافحين، فعاداهم الناس لنصرهم رسول الله ودينه. وينتقل حسان ليتحدث عن تجربة الأنصار في الحرب والجهاد بقيادة المصطفى صلوات الله عليه جهاداً يتلازم مع الإيمان بكل آية ينزل بها الوحي من الله:

نجالدُ الناس لا نبقي على أحدٍ
ولَى ونتبع ما توحيَ به السّور
ولا يهِرّ جناب الحرب مجلسُنا
ونحن حين تَلظّى نارها سُعُر
وكم رددنا ببدرٍ دون ما طلبوا
أهلَ النّفاق وفينا انزل الظفر
ونحن جندك يوم النّعف من أحُدٍ
إذا أحزبت بطراً أشياعُها مضر
فما ونينا وما خمنا وما خبروا
منّا عثاراً وجل القوم قد عثروا

لقد استثمر حسان تجربة الحب والحرب

Afāq al -Ṭaqāfa Wa al -Turāṯ
A Quarterly Journal of Cultural Heritage
Jum `a al -Majid Center for Culture and Heritage

آفاق الثقافة و التراث
مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية
تصدر عن مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث

Subscription Order Form — قسيمة اشتراك

☐ سنة One Year	☐ أكثر من سنة More Than One Year	☐ عدد السنوات # of Years

للأعداد : .... Issues #   عدد النسخ : .... # of Copies:

ابتداء من تاريخ : .... Subscription Date :

☐ شيك Check	☐ حوالة مصرفية Bank Draft	☐ حوالة بريدية Postal Draft

التاريخ : .... Date :   التوقيع : .... Signature :

الاشتراك السنوي

داخل الإمارات :
للمؤسسات : ١٠٠ درهماً .
للأفراد : ٦٠درهماً .
للطلاب : ٤٠ درهماً

في الخارج :
للمؤسسات : ٣٥ دولاراً أمريكياً
للأفراد : ٢٠ دولاراً أمريكياً .

تودع الاشتراكات في رقم الحساب البنكي للمركز : ٠٤٩٠٩٠٦٥٢٣ - بنك المشرق - دبي

Payments should be made To Juma al - Majid Center for Culture and Heritage
Acc . # 0490906523 al - Mashriq Bank - DUBAI

Afāq al -Ṭaqāfa Wa al - Turāṯ

آفاق الثقافة و التراث

إشعار بالتسلم
Acknowledgment of Receipt

Name: .... : الاسم الكامل

Institution: .... : المؤسسة

Address : .... : العنوان

P.O.Box : .... : صندوق البريد

No of Copies ☐ عدد النسخ   Issue No ☐ العدد

Subscription ☐ اشتراك   Exchange ☐ تبادل   Gift ☐ اهداء

Sig- .... التوقيع   Date .... : التاريخ

Stamp
الطابع
البريدي

ترسل إلى :
مجلة آفاق الثقافة و التراث
ص ب : ٥٥١٥٦ - فاكس : ٦٩٦٩٥٠ (٠٤) - دبي - الإمارات العربية المتحدة
Afāq al -Ṯaqāfa Wa al -Turāṯ
P.O.Box : 55156 - Fax : (04) 696950 DUBAI - U.A.E

Name: .... : الاسم

Address : .... : العنوان

Country : .... : البلد

Phone : .... : هاتف   P.O .Box : .... : ص ب

Fax : .... : فاكس

والولاء للإسلام في عتاب النبيّ القائد صلى الله عليه وسلم، يوظف عاطفة الحب والحزن والحماس للعتاب أيضاً، كل ذلك ليبين لنا موقفه الإسلامي الإيماني من خلال نظرة إنسانية محجوبة عن النبوة(٨٥)، ولربما شجع حساناً على العتاب ما حصل بعيد فتح مكة من رهق في سيوف سليم وخالد بن الوليد، فقد«بعث الرسول صلى الله عليه وسلم فيما حول مكة السرايا تدعو إلى الله عز وجل ولم يأمرهم بقتال. وكان ممن بعث خالد بن الوليد وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً، فوطىء بني جذيمة، فأصاب منهم وكان بأمرة خالد قبيلة سليم.. فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء، ثم قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد.. ثم أرسل عليّ بن أبي طالب بأموال إلى القوم فوداهم وأرضاهم، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما صنع فقال: أصبت وأحسنت. ثم استقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتى ليرى مما تحت منكبيه، يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات»(٨٦).

لم يكن هدف الرسول صلى الله عليه وسلم تفضيل سليم على الأنصار، ولكنه كما أرى حاول أن يخفف العداء بين قريش والأنصار حتى لا يستمر تتابع الوقائع بين الطرفين، فيكون مدعاة في المستقبل بعد إسلام قريش لإثارة الفتن والضغائن والأحقاد. وليأمن كبح جماح الثارات التي يخشى أن ينساق لها الأنصار فيفتكوا بقريش، في الوقت الذي يهدف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إسلام مكة لا إلى إذلالها.

تأثر أسلوب حسان بالأسلوب القرآني الذي تأدب به، فنحا نحوه في لطف العتاب ورقته، ولا نعرف جواب الرسول الكريم على عتاب حسان، ولكننا نظن ظناً غالباً بأن استجابته لعتابه لن تختلف كثيراً عن استجابته لعتاب الأنصار يوم حُنين، لقد كان عتاب حسان نظرةً آنيّة في الدنيا، وكان موقف الرسول صلوات الله عليه نظرة مستقبلية من أجل الدنيا والآخرة معاً. يستفهم حسان بإنكار ريادة سليم لجيش المسلمين في دخول مكة، ثم يعلل سبب إنكاره بما للأنصار من دور في حياة الدعوة والمسلمين ببقية الأبيات «علام تدعى سليم..»».

لقد أثارت قصيدة حسان حفيظة العباس بن مرداس فناقضها مناقضة خفية في قصيدته التي مطلعها(٨٧):

ما بال عينيك فيها عائر سهر
مثل الحماطة أغضى فوقها الشفر(٨٨)

وفيها يعرِّض تعريضاً مقيتاً بالأنصار بقوله:

لا يغرسون فسيل النخل وسطهم
ولا تخاور في مشتاهم البقر

وقد سبق لنا أن وقفنا موقفاً متأنياً عند هاتين النقيضتين دراسةً وتحليلاً(٨٩).

لقد أثار عتاب حسان هذا مؤاخذة عدد من الدارسين، فرأى الدكتور سامي مكي العاني أنه بقايا من جاهلية حسان القديمة التي بالغ فيها حتى انقلب فخره إلى عتاب لرسول الله(٩٠). ورأى آخر أن هذه القصيدة نزوع إلى القبليّة وحنين إليها، ورفض لظاهرة الدولة بمفهومها الجديد(٩١). وليس في الأمر شيء من الجاهلية أو رفض للدولة الجديدة، بل الأمر كله أن حساناً رأى أن يكون الأنصار أول داخل إلى مكة لسابقتهم في الإسلام وحسن بلائهم في الله لا أدنى من ذلك ولا أكثر.

وقد رأى الدكتور عبد الله الحامد في هذه القصيدة كلفاً جاهلياً عكّر صفو الشعر الإسلامي، لكنه أشاد بالصراحة بين الحاكم والمحكوم، فقد كان الفرد «حراً يقول ما يريد في حدود الإطار الإسلامي، كما كان الحاكم غير مستبد في رأيه، يشرح كل موقف غامض، ويأخذ بكل نقد حق»(٩٢).

استغرق العتاب في الشعر مقطوعة وقصيدتين قصيرتين، وقد كان قصر هذه القصائد دليلاً على حجم التجربة الشعورية للشعراء العاتبين الذين أفرغوها في هذا الشكل الموجز تأدباً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكراهة للإطالة، إذ إن من الحكمة ألاّ يطول العتاب ويكثر، فإنّ كثرته مدرجةٌ للقطيعة - على رأي الحكماء - وما كان الشعراء ليطيلوا في هذا المقام الكريم. والشعراء أذكياء في إيجازهم الذي رآه الجاحظ فيما ينطوي عليه من الفنون ملازماً لذكاء العرب وفطنتهم ودقة ملاحظتهم، فقال: «ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذق. وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام»(٩٤).

افتتح الشعراء قصائدهم بما ينبىء عن تجاربهم في هاتيك القصائد فمطلع القصيدة وسيلة التعارف الأولى بين الشاعر والمتلقي. فمن خلاله يُستشف موضوع القصيدة وعاطفتها، ويعرف بحرها وقافيتها، وقد عدّه ابن رشيق (- ٤٥٦ هـ) مفتاح القصيدة ينبغي للشاعر أن يجوِّد فيه: «فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدلّ على ما عنده أول وهلة»(٩٥). واشترط حازم القرطاجني (- ٦٨٤ هـ) في المطلع أن يكون «مناسباً لمقصد المتكلّم من كل جهاته»(٩٦). فقد افتتحت قُتيلة بنت النضر قصيدتها برثاء أبيها مشيرة إلى مكان قتله في «الأُثَيْل» الذي ما كانت تتوقع أن يقتل أبوها فيه لقرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم منطلقة من مفهوم قبلي لذا أسمت المكان «مظَنّة».

يا راكباً إنّ الأُثَيْلَ مظنّةٌ
من صبحِ خامسة وأنت موفّق

واستمرت ترثي أباها رثاء «شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثيراً للتباريح بألفاظ مألوفة سهلة في وزن متناسب ملذوذ»(٩٧).

ثم اختتمت قصيدتها بعاطفة حزينة لتثير الشفقة على أبيها الأسير الذي يرسف في قيوده.

صبراً يقاد إلى المدينة متعباً
رسف المقيَّد وهو عانٍ موثق

لتثير شفقة الرسول الكريم على أبيها. وقد تحقق لها ذلك، فكانت بارعة في ختام قصيدتها، كما كانت بارعة في افتتاحها «وخاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق بالنفس، لقرب العهد بها، فإن حسنت حسن، وإن قبحت قبح»(٩٨).

وافتتح العباس بن مرداس قصيدته بذكر الغنائم والنهاب واختتمها في البيت السابع بحرصه على المنزلة الاجتماعية التي ابتغاها من حصوله على تلك الغنائم.

وبدأ حسان بن ثابت قصيدته بالهموم والأحزان والدموع واختتمها في البيت الثالث عشر بتعزيز موقف الأنصار الذين ثبتوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام في حين تذبذب موقف آخرين منه.

لقد كانت مقاطع خواتيم القصائد مناسبة لمطالعها منسجمة مع موضوعاتها وخاصة مقطعي قصيدتي قتيلة وحسان فقد كانا أحسن ما اندرج في حشو القصيدتين، فقد تحرّزا من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدتا إمالتها إليه(٩٩).

بدت الوحدة العضوية جليّةً في قصيدة قتيلة من خلال العاطفة الحزينة التي سادتها من مطلعها إلى خاتمتها ومن خلال وحدتها الموضوعية التي اتحد فيها العتاب والرثاء اتحاداً لا تنفصل عراه، فهي من جيّد الشعر الذي رأى فيه الجاحظ ما عبّر عنه بقوله:

«وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان»(١٠٠).

وبدت الوحدة العضوية أيضاً في قصيدة حسان بن ثابت على الرغم من تعدد التجارب في ظل العاطفة الحزينة التي سادت تجربته العاطفية مع «شعثاء في البيت الأول حتى الثالث» والعتاب (في البيتين الرابع والخامس) الذي يوظف له حسان تجربة قومه في نصرة الله ورسوله (في البيت السادس إلى الثامن) وتجربتهم في الحرب والجهاد المتلازم مع جهاد النفس في تنفيذ ما ينزل من القرآن آية فآية بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويوثق حسان صدق هذه التجربة بغزوتي بدر وأحد (في البيت التاسع إلى الثالث عشر الأخير) فهذه التجارب جميعاً تجلو لنا موقف حسان من الدعوة وصاحبها، ولا يتعارض تعدد التجارب مع الوحدة العضوية، ما دامت تمثل جميعاً موقف نفس حسان من الدعوة وصاحبها: «إن الكثيرين لا يفهمون المقصود بهذه الوحدة [العضوية] فيظنون، أن مدلولها هو اقتصار القصيدة على تجربة واحدة أو عاطفة واحدة، ولكن الوحدة المطلوبة لا تحجز الشاعر عن تعدد التجارب والعواطف في قصيدته، إنما يشترط أن تكون جميعاً متجانسة المغزى، هادفة بتعددها إلى استجلاء وحدة في الوجود أو في موقف النفس البشرية منه»(١٠١).

تفاوتت لغة القصائد الثلاث قوة ورقة فكانت قصيدة قتيلة رقيقة الألفاظ يشوبها الحزن والأسى، ولهذا الحزن أثره في تشكيل لغة القصيدة؛ «فليست الألفاظ في بساطتها أو جلالها هي المحك، ولكنّ الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها»(١٠٢).

واجتازت قصيدة حسان ما في لغة قُتيلة من رقة إلى شيء من قوة الألفاظ المناسبة للفخر الذي أشاعه حسان في جوانب قصيدته. وكانت لغة القصيدتين حضرية جانبت البداوة وابتعدت عن الغريب؛ ذلك أن حسان وقتيلة حضريان، هو من المدينة وهي من مكة «وأهل القرى ألطف نظراً من أهل البدو»(١٠٣) فلغتهما ألطف من لغة العباس بن مرداس البدوي الذي لم تصقل لغته وأسلوبه الحضارة، ولم يتعمق نفسه الإيمان، وقد شغل بنصيبه من الغنائم عن فنه الشعري، فوقف يعقد منافرة بينه وبين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن (في البيت الثالث) ومفاخرة أخرى بين أبيه العباس وأبوي قرنيه، حابس وحصن (في البيت السادس).لقد اختلفت لغة القصائد الثلاث باختلاف عواطفها السائدة، واختلاف بيئات شعرائها، واختلاف شخصياتهم وذلك أمر طبيعي، فقد كان القوم يختلفون في إتقان الشعر، «وتتباين فيه أحوالهم، فيرقّ شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعّر منطق غيره، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ، معقد الكلام، وعر الخطاب، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك»(١٠٤).

استعان الشعراء الثلاثة بالتكرار لتحقيق انسجام إيقاعي في شعرهم فضلاً على التأكيد والإفهام والإقناع، ويعد الدكتور سامي العاني التكرار من السمات البارزة في شعر صدر الإسلام(١٠٥).

فقد كررت قتيلة في قصيدتها ألفاظاً جانست بينها (في البيت الرابع) «هل يسمعني، كيف يسمع» وفي «البيت الخامس» بين «والفحل، فحلُ»، واستعمل العباس التكرار أيضاً في «البيت الثالث» فجانس بين «نهبي ونهب» وكرّر حسان ألفاظاً في شعره نحو تكراره لاسم حبيبته «شعثاء» في «البيت الثاني» وجانس «في البيت الرابع» بين لفظتي «مؤتمن وللمؤمنين»

وكرر الضمير هم في البيت الخامس «هم وهم» وجانس في البيت السادس بين لفظتي «أنصاراً ولنصرهم». وثمّة تكرار آخر غير الجناس يمهّد لتوقع القافية، أشار إليه ابن المقفّع إشارة غير مباشرة من خلال حديثه عن القافية فقال: «كما أنَّ خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته»(١٠٦) وسمي هذا اللون من التكرار التوشيح وهو «أن يكون معنى أول الكلام يدل على لفظ آخره فيتنزل المعنى منزلة الوشاح، ويتنزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح»(١٠٧). واشترط قدامة بن جعفر «أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته، ومعناه متعلقاً به حتى أن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت قافيته(١٠٨) وهذا التكرار يقيمه الشاعر بذكر لفظ في البيت ثم يعيد ذكره أو ذكر أحد مشتقاته في القافية، فيكون الأول ممهداً للثاني، وقد يكون بين اللفظين جناس أو طباق. ويحقق هذا التكرار «التوشيح» توكيداً للمعنى أو استمتاعاً وتلذذاً بترديد أسماء الأفراد أو الأماكن، ويحقق للمتلقي متعة المشاركة بتوقع القافية التي يوحي بها اللفظ الأول. ومن هذا اللون قول قتيلة:

أو كنت قابل فدية فلينفقن
بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابةً
وأحقهم إن كان عتقٌ يعتق

وقول العباس بن مرداس:

وإيقاظيَ القوم أن يرقدوا
إذا هجع الناس لم أهجع

وقول حسان بن ثابت:

دع عنك شعثاء إذ كانت مودّتها
نزراً وشرٌ وصال الواصل النزر

فما ونَيْنا وما خمنا وما خبروا
منّا عثاراً وجلّ القوم قد عثروا

واعتمد الشعراء الأضداد في شعرهم فطابقوا بين الألفاظ، نحو ما فعل العباس في «البيت الأول» إذ طابق بين «إيقاظ ويرقدوا» وبين «هجع ولم أهجع» وفي «البيت الرابع» بين «لم أُعطَ، ولم أمنع» وفي البيت السابع بين «تضع ولا يرفع»، ونحو ما فعله حسان بن ثابت، إذ طابق في البيت السابع بين «جاهدوا وخاموا». ومن اعتمادهم الأضداد أيضاً استعمالهم التقابل الدلالي بين المعاني، نحو قول قتيلة تقابل بين الحي في الشطر الأول وضده في الشطر الثاني:

هل يسمعني النضر إن ناديته
أم كيف يسمع ميتٌ لا ينطق

ونحو ما فعل حسان بن ثابت إذ قابل بين تحالف الأنصار مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتحالف قبائل مضر ضده:

ونحن جندك يوم النعف من أحد
إذا حَزَّبت بطراً أشياعها مضر

وأقام تقابلاً آخر بين شجاعة قومه وجرأتهم وتعثر الآخرين في مسيرة الإسلام:

فما ونينا وما خمنا وما خبروا
منا عثاراً وجلّ القوم قد عثروا

لقد أدت هذه الطباقات والمقابلات حقيقة عززت موقف الشعراء في العتاب الذي أدوه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم.

الخاتمة ونتائج البحث

نحمد الله إذ انتهى بنا المطاف في ظل الدوحة القرآنية الوارفة أن تأدبنا بأدب القرآن الكريم، وعطّرتنا ذكرى المصطفى صلى الله عليه وسلم، فانتهينا في هذا البحث إلى أن العتاب في اللغة: أدنى درجات اللوم وأخفَّ مراجعة

المتواجدين، وهو مخاطبة الإدلال ودلّ العتاب في القرآن الكريم على طلب الرضا.

وخلصنا إلى أن مفهوم العتب في الاصطلاح يعني: الحرص على عودة المحبة أو الصداقة أو الرضا بعد حصول ما ينغّصها، فإذا تمت المعاتبة صفت النفس وسكنت ثانية إلى الحب والصداقة والمودة.

وبعد فقد رأينا القرآن الكريم يتدرّج في معاتبة النبيّ صلى الله عليه وسلم على هذا النحو:

١ - عتاب ليّن رقيق يسبقه العفو ﴿عفا الله عنك لمَ أذنتَ لهم..﴾.

٢ - عتاب ليّن رقيق يتبعه العفو ﴿لم تُحرّم ما أحلّ الله لك.. والله غفور رحيم﴾.

٣ - عتاب شديد مشفوع بتنبيه رادع ﴿كلاّ إنّها تذكرة..﴾.

٤ - عتاب شديد مشفوع بالتهديد والوعيد بعذاب عظيم ممتنع ﴿ولولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾.

وكان العتاب الإلهي دروساً للأمة فرداً ومجتمعاً، فأما العتاب الأول فدرس يمتحن صدق إيمان المسلم بالجهاد، وأما الثاني فيرسم حريّة ربّ الأسرة في إطارها الحلال القويم ابتغاء حياة ساكنة في ظلال المودة والرحمة، وأما الثالث فلبناء منهج ينظّم الصلة بين الدعاة والمدعوّين، وأما الرابع فلترسيخ قدم الأمة في الأرض على عهود المحن وتكالب الأعداء. لقد كان العتاب الرحمانيّ موجزاً قصيراً في لفظه وآيه، سامياً في معانيه ودلالاته، وقد حق هذا العتاب، لأنه من الله لمخلوقه وحبيبه وصفيّه.

ورأينا العاتب في النثر يعاتب لأنه لا يرى ما يراه رسول الله صلوات الله عليه ولا يعرف ما يعرفه، وليس له ما للمصطفى من خلق وفضل وقوة وعقل وحكمة وحلم ومروءة وحسن سيرة ومعاشرة وطبع جبل عليه، هذا فضلاً عما يبلغ النبيّ من الوحي الذي يبصّره بما لم يبصر، ويعلّمه ما لم يعلم، فكان يرى ما لا يراه الآخرون،

فكان العتاب نابعاً من قصور البشر وتصورهم للدنيا بمعزل عن الآخرة حباً بالدنيا ورغبة بدوام المحبة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصراحة نابعة من الحرص على حبه وبقاء هذا الحب نقيّاً صافياً، وكان عتاب النبي صلى الله عليه وسلم في النثر نادراً جداً وموجزاً، بدا عليه حسن تخيّر الكلام وحسن صوغه تأدباً وكياسة وفطنة وتأثراً بأسلوب القرآن الكريم.وكان عتاب الشعراء النبيّ صلوات الله عليه نابعاً من حالات إنسانية، منها ما غاب الإسلام عنه نحو عتاب قُتيلة بنت النضر الذي كان متسقاً مع التدرج الأول لأسلوب العتاب في القرآن الكريم، وقبله الرسول استجابة لصلة الرحم وغسلاً لما قد يقرّ في صدر الشاعرة من ضغينة على الإسلام والمسلمين، ومنها ما كان في دائرة الإسلام وغاب عنه الإيمان نحو عتاب العباس بن مرداس الذي حرص فيه على مظهر اجتماعي فارغ من مظاهر الدنيا مقياسه المال، وقبل الرسول عليه الصلاة والسلام عتابه كارهاً؛ لأن أسلوبه لم يتأثر بأسلوب القرآن الكريم وأدبه، ومنها أيضاً حالة إسلامية إيمانية غاب فيها عن تصور الشاعر للمستقبل في الدنيا وفي الآخرة، نحو عتاب حسان بن ثابت الذي تأثر فيه بأسلوب العتاب الأول والثاني في القرآن الكريم إلى حد بعيد، وقبل الرسول عتابه كما قبل من قبل عتاب الأنصار في النثر.

وكان العتاب في الشعر قليلاً ونادراً قياساً بالكم الشعري الذي وصل إلينا على عهد البعثة النبوية، كما كان قليلاً ونادراً في النثر من قبل.

لقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم عتاب أصحابه فأدى لنا درساً لمستقبل الأمة وضع فيه حرية القول وصراحة الحوار لمصلحة المسلمين قائداً ورعيّة فكان خير عاتب ومستعتب. وأخيراً فقد وفق الشعراء في إقامة تناسب بين مطلع القصيدة وخاتمتها تناسباً ينسجم مع موضوعها وعاطفتها السائدة، وتحققت الوحدة

العضوية في قصيدتين من شعرهم، وتفاوتت لغة قصائدهم بين الرقة والفخامة والقول تبعاً لتفاوت شخصياتهم وعواطفهم وبيئاتهم واستعانوا بالتكرار والطباق والمقابلة لأداء شعرهم في العتاب.

الحواشي:

١ - الألفاظ الكتابية، ص ٧.
٢ - معجم مقاييس اللغة، مادة «عَتَبَ»، ٤:٢٢٦.
٣ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة «عَتَبَ»، ١:١٧٦.
٤ - القاموس المحيط، مادة «عَتَبَ»، ١:١٠٠.
٥ - لسان العرب، مادة «عَتَبَ»، ١:٥٧٧.
٦ - لسان العرب، مادة «عَتَبَ»، بلا عزو، ١:٥٧٧.
٧ - سورة النحل، الآية ٨٤.
٨ - التفسير الكبير، ٢٠:٩٦.
٩ - الجامع لأحكام القرآن، مج ٥، ١٠:١٦٢.
١٠ - ديوان النابغة الذبياني، ص ٧٤.
١١ - سورة التوبة، الآية ٤٣.
١٢ - السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ص ١٤٠.
١٣ - ينظر : الزمخشري، الكشاف، ٢:١٩٢. وقطب، سيد، في ظلال القرآن، ٤:٢٣.
١٤ - سورة التحريم، الآية ١.
١٥ - لباب النقول، ص ٣٠٤.
١٦ - سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس.. هاجرت إلى الحبشة مع زوجها وعادت بصحبته إلى مكة، ثم مات قبل الهجرة فتزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر: السيرة، ١:٣٢٩، ٣٦٨ - ٣٦٩.
١٧ - لباب النقول، ص ٣٠٥. وينظر: الزمخشري، الكشاف، ٤:١٢٤ - ١٢٧.
١٨ - المصدر ذاته، ص ٣٠٥.
١٩ - سورة الروم، الآية ٢١.
٢٠ - ماريّة بنت شمعون سريّة الرسول صلى الله عليه وسلم وأم ولده إبراهيم، قبطيّة أهداها إليه المقوقس. وينظر ترجمتها في السيرة، ١:١ و١٩١.
٢١ - في ظلال القرآن، ٨:١٦٤ - ١٦٥.
٢٢ - سورة عبس، الآية ١ - ١١.
٢٣ - السيرة، ١:٣٦٣ - ٣٦٤. وينظر: لباب النقول، ص ٣٢٤. والكشاف، ٤:٢١٨.
٢٤ - سورة هود، الآية ٢٧.
٢٥ - سورة الشعراء، الآية ١١١.
٢٦ - في ظلال القرآن، ٨:٤٥٨.
٢٧ - المصدر ذاته، ٨:٤٥٨ - ٤٥٩.
٢٨ - المصدر ذاته، ٨:٤٥٨.
٢٩ - السيرة، ٢:٣٤.
٣٠ - سورة الأنفال، الآية ٦٧ - ٦٨.
٣١ - لباب النقول، ص ١٣٤. وينظر الكشاف، ٢:١٦٨.
٣٢ - السيرة، ١:٦٧٦.
٣٣ - المصدر ذاته.
٣٤ - سورة القلم، الآية ٤.
٣٥ - سورة آل عمران، من الآية ١٥٩.
٣٦ - سورة التوبة، الآية ١٢٨.
٣٧ - صحيح البخاري، ٥:٣٢٠. وينظر الصفحات من ٣١٧ - ٣٢٠.
٣٨ - صحيح البخاري، ٥:١٠٨.
٣٩ - السيرة، ٢:٤٩٨ - ٤٩٩.
٤٠ - الموجدة : العتاب، ويروى جدة، وأكثر ما تكون الجدة في المال.
٤١ - العالة : جمع عائل وهو الفقير.
٤٢ - أمَنُّ : من المنّة، وهي النعمة.
٤٣ - السيرة، ٢:٤٩٩.
٤٤ - المخذول : المتروك بلا نصير.
٤٥ - آسيناك : لميناك حتى جعلناك كأحدنا.
٤٦ - السيرة، ٢:٤٩٩.
٤٧ - اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة، شبّه بها

زهرة الدنيا ونعيمها.
٤٨ – السيرة، ٢:٤٩٩.
٤٩ – المصدر ذاته.
٥٠ – المصدر ذاته.
٥١ – المصدر ذاته.
٥٢ – المصدر ذاته، ٢:٥٠٠. أَخْضَلُوا لِحاهُم: بَلُّوها بالدموع.
٥٣ – ينظر السيرة، ١:٧١٠. والأغاني، ١:١٩. «أخت النضر بن الحارث» والصواب ابنته كما في الاستيعاب، وأبوها النضر ابن الحارث بن كَلَدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار.
٥٤ – ينظر ترجمتها في الاستيعاب، ٤:١٩٠٤.
٥٥ – السيرة، ٢:٤٢. وينظر الاستيعاب، ٤:١٩٠٤ – ١٩٠٥.
٥٦ – الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء. مظنّة: موضع إيقاع الظن.
٥٧ – النجائب: الإبل العتاق. تخفق: تسرع.
٥٨ – الواكف: السائل.
٥٩ – السيرة، ٢:٤٢. وينظر الأغاني، ١:١٩.
٦٠ – الضنء: الأصل والولد. المُعْرِق: الكريم.
٦١ – المحنق: الشديد الغيظ.
٦٢ – تنوشه: تتناوله. تشقق: تقطّع.
٦٣ – الرّسف: المشي الثقيل، كمشي المقيّد ونحوه. العاني: الأسير. وقد وردت هذه الأبيات باختلاف في ترتيبها وبعض ألفاظها في الأغاني، ١:١٩.
٦٤ – السيرة، ٢:٤٣. وينظر الاستيعاب، ٤:١٩٠٥.
٦٥ – الأغاني، ١:١٩. وعيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧٠.
٦٦ – الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ٩٠.
٦٧ – ينظر السيرة ٢:٤٩٢ ـ ٤٩٣. والاصابة ٣:٦٣٣.
٦٨ – ديوانه، ص ٨٤.
٦٩ – النهاب: جمع نهب وهو ما ينهب ويغنم.

الأجرع: المكان السهل.
٧٠ – العُبَيْد: اسم فرس الشاعر.
٧١ – ذا تُدرأ: ذا دفع عن قومي. مدافع ذو عزة ومنعة.
٧٢ – أفائل: جمع أفْيَل وهي صغار الإبل. قوائمها: أي قوائم فرسه.
٧٣ – ديوانه، ص ٨٤ – ٨٥.
٧٤ – العباس بن مرداس السلمي الصحابيّ الشاعر، ص ٤٠.
٧٥ – سورة الحجرات، من الآية ١٤.
٧٦ – السيرة، ٢:٤٩٣. وإحياء علوم الدين، ٣:١٢٧.
٧٧ – ينظر الرسول والشعر من خلال السيرة (مجلة، ٥٥).
٧٨ – إحياء علوم الدين، ٣:١٢٧.
٧٩ – السيرة، ٢:٤٩٧.
٨٠ – ديوانه، ص ٢٠٦ – ٢٠٧.
٨١ – سورة الأنفال، الآية ٧٤.
٨٢ – العوان: الحرب التي قوتل فيها مرّة بعد مرّة.
٨٣ – خاموا: جبنوا.
٨٤ – البيت في رواية السيرة، ٢:٤٩٨. الوزر: الملجأ.
٨٥ – ينظر هامش ٢٩٨ من الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام، دراسة فكرية فنية.
٨٦ – ينظر تفصيل الخبر في السيرة، ٢:٤٢٨ – ٤٣٠.
٨٧ – ديوانه، ص ٥٣.
٨٨ – العائر: كل ما أعلّ العين. الحماطَة: شجر خشن الملمس وأصله تبن الذرة تقع في العين فتقذى به. أغضى: أغمض جفنه عليها. الشفر: أصل منبت الشعر في العين.
٨٩ – الشعر الإسلامي، ص ٢٩٧ – ٣٠٠.
٩٠ – دراسات في الأدب الإسلامي، ص ٢٨٢.
٩١ – الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية، ص ٩٨.

٩٢ - الحامد، الشعر الإسلامي، ص ١٩٨. ونحن نتحرز من استعمال كلمة «الحاكم» إزاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.
٩٣ - العقد الفريد، ٢:٣٠٩.
٩٤ - الحيوان، ١:٩٤.
٩٥ - العمدة، ١:٢١٨.
٩٦ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٣١٠.
٩٧ - منهاج البلغاء، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.
٩٨ - العمدة، ١:٢١٧.
٩٩ - ينظر منهاج البلغاء، ص ٢٨٥.
١٠٠ - البيان والتبيين، ١:٦٧.
١٠١ - قضية الشعر الجديد، ص ١٠٨ - ١٠٩.
١٠٢ - الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ص ٨٩.
١٠٣ - طبقات فحول الشعراء، ١:١٤٠.
١٠٤ - الوساطة، ص ١٧ - ١٨.
١٠٥ - الإسلام والشعر، ص٢٢٠.
١٠٦ - البيان والتبيين، ١:١١٦.
١٠٧ - حسن التوسل إلى صناعة الترسل، ص ٢٥٩.
١٠٨ - نقد الشعر، ص ١٩١.

المصادر والمراجع

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد ابن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (- ٦٦٨ هـ) عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تـ نزار رضا. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥.
- ابن جعفر، قدامة (- ٣٣٧ هـ). نقد الشعر. تـ كمال مصطفى. ـ ط ٢. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٣.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (- ٨٥٢ هـ) الإصابة في تمييز الصحابة. تـ علي محمد البجاوي. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م.
- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (- ٤٥٦ هـ). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تـ محمد محيي الدين عبد الحميد. ـ ط ٤. بيروت: دار الجيل، ١٩٧٢ م.
- ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي (- ٢٣١ هـ). طبقات فحول الشعراء. تحقيق وشرح محمود محمد شاكر. القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م.
- ابن عبد البر، أبو يوسف بن عبد الله بن محمد (- ٤٦٣ هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تـ علي محمد البجاوي. القاهرة: مطبعة نهضة مصر (د. ت).
- ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمرة أحمد بن محمد (- ٣٢٧ هـ). العقد الفريد. تـ أحمد أمين وآخرين. ـ ط ٣. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م.
- ابن فارس، احمد ابوالحسين (- ٣٩٥ هـ). معجم مقاييس اللغة. تـ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر (د. م.) ،(د. ت).
- ابن معاوية، زياد. ديوان النابغة الذبياني (- ٦٠٤ هـ)
تـ محمد أبي الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف (د. ت).
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري (- ٧١١ هـ). لسان العرب. بيروت: دار صادر، ١٩٥٥ - ١٩٥٦.
- ابن هشام، عبد الملك (- ٢١٨ هـ). السيرة النبوية. تـ مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. ـ ط ٢. القاهرة: شركة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م.
- أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين (- ٣٥٦ هـ) الأغاني. إشراف وتحقيق إبراهيم الأبياري، دار الشعب، ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (- ٢٥٦هـ) صحيح البخاري. ـ ط ٢. بيروت: عالم الكتب، المطبعة المنيرية، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (- ٢٥٥ هـ) .البيان والتبيين. تـ وشرح عبد السلام محمد هارون ط ٣. القاهرة: مؤسسة الخانجي (د.ت).
- الجاحظ، ابوعثمان عمرو بن بحر (- ٢٥٥ هـ) الحيوان. تـ وشرح عبد السلام محمد هارون. ـ ط ٣

. بيروت : دار الكتاب العربي، ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٩ م.
○ الجرجاني، علي بن عبد العزيز (- ٣٩٢ هـ) . الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيق وشرح محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي . ـ ط ٤، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م.
○ الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (- ٣٩٣ هـ) . الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية . تـ أحمد عبد الغفور عطّار (د. م.) ،(د. ت.).
○ الحامد، عبد الله . الشعر الإسلامي في صدر الإسلام . الرياض : مطابع الإشعاع التجارية، ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م.
○ حسنين، سيّد حنفي . ديوان حسان بن ثابت الأنصاري . مراجعة حسن كامل الصيرفي. القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م.
○ درو، أليزابيث . الشعر كيف نفهمه ونتذوقه . ترجمة محمد إبراهيم الشوش . بيروت، ١٩٦١.
○ ديوان العباس بن مرداس السلمي (- نحو ١٨ هـ) جمع وتحقيق يحيى الجبوري، بغداد: دار الجمهورية وزارة الثقافة والإعلام ، ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م.
○ الزبيدي، كاصد ياسر . الرسول والشعر من خلال السيرة، مجلة الجامعة، ع ٥، السنة ١١ . الموصل، ١٩٨١.
○ الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود ابن عمر (٤٦٧ - ٥٣٨) . الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . طهران (د. ت.).
○ سركيس، إحسان . الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية . بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨١.
- السيوطي، جلال الدين (- ٩١١ هـ) . لباب النقول في أسباب النزول . ـ ط ٢ .تونس : الدار التونسية للنشر، ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م.
○ العاني، سامي مكي . الإسلام والشعر . الكويت : سلسلة عالم المعرفة، ع ٦٦، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م.
○ العاني، سامي مكي . دراسات في الأدب الإسلامي، توزيع المكتب الإسلامي (د. م.) ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م.
○ عسيلان، عبد الله عبد الرحيم . العباس بن مرداس السلمي الصحابي الشاعر . الرياض : دار المرّيخ للنشر، ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م.
○ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (- ٥٠٥ هـ) . إحياء علوم الدين، وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم ابن الحسين العراقي (- ٨٠٦ هـ) . بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر (د.ت.).
○ الفخر الرازي (- ٦٠٦ هـ) . التفسير الكبير . ـ ط ٢ . طهران : دار الكتب العلمية (د. ت.).
○ الفهادي، كمال الدين. الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام : دراسة فكرية فنية، (رسالة دكتوراه) الموصل: جامعة الموصل ـ كلية الآداب، ١٤١١ هـ =١٩٩٠ م.
○ الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (- ٨١٧ هـ) . القاموس المحيط . بيروت : دار العلم للجميع (د. ت.).
○ القرطاجني، أبو الحسن حازم (- ٦٨٤ هـ) . منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تقديم وتحقيق محمد الحبيب أبي الخوجة . تونس : دار الكتب الشرقية، ١٩٦٦.
○ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (- ٦٧١ هـ) . الجامع لأحكام القرآن . بيروت : دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٦.
○ قطب، سيد . في ظلال القرآن . ـ ط ٥ . بيروت : دار إحياء التراث العربي، ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٧ م.
○ النويهي، محمد . قضية الشعر الجديد . ـ ط ٢، دار الفكر ومكتبة الخانجي، ١٩٧١ (د. م.).
○ الهمذاني، عبد الرحمن بن عيسى (- ٣٢٠ هـ). الألفاظ الكتابية، (د.م): الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠.

البديع

عند حازم القرطاجني

(٦٠٨ – ٦٨٤ هـ)

دار الكتب الشرقية

منهاج البلغاء وسراج الأدباء

صنعة

أبي الحسن حازم القرطاجني

المتوفى بتونس في 24 رمضان 684

23 نوفمبر 1285

تقديم وتحقيق

محمد الحبيب ابن الخوجة



تونس 1966

الدكتور محمد الحجوي

سلا – المغرب

كتاب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» يختلف عن الكتب التي ألفت لاستقصاء أبواب البديع وأغراضه، مثل ما فعل ابن رشيق في جزء كبير من مؤلفه والسكاكي والخطيب والقزويني، وذلك أن حازماً عُني بظواهر نقدية كبرى، استقصى فيها القواعد العامة للمعاني والأساليب والنظوم، وآراء الفلاسفة والنقاد في المحاكاة والتخييل والأقاويل الشعرية والخطبية، وما هو أصيل منها وغير أصيل. فكانت المآم والإضاءات والتنويرات التي تُعنى بالمعاني وطرق التصرف فيها، وبما هو أعلق بجوهر الشعر، أظهر من قضايا البديع: «إذ المعتبر في حقيقة الشعر إنما هو التخييل والمحاكاة في أي معنى اتفق ذلك»(١).

ولذلك نجد الباحثين الذين عنوا بدراسة كتاب حازم انصب اهتمامهم على هذه القضايا النقدية الفلسفية، فتتبعوا أصول المحاكاة، ومفهوم التخييل، وخصائص الأقاويل الشعرية والخطبية، وجهات اقتباس المعاني، وعلاقة المعاني بتناسب الأوزان والقوافي، والجهات التي يتم بها تصحيح الخلل في الطباع والأذواق، لأن هذه هي الخصائص التي تشكل علم الشعر(٢). وذلك أن حازماً كان ذا قدرة كبيرة على استنباط هذه الخصائص من شعر الفحول، واستطاع أن يخرج باستنتاجات لم تذكر عند من تقدمه من النقاد والبلاغيين(٣).

وقد شعر حازم نفسه أنه بذل جهداً كبيراً في هذا المجال، واستقصى أشياء لم يتسن لغيره بسط القول فيها، فقال مفتخراً بهذا الجهد - وحق له أن يفعل ذلك -: «وقد سلكت من التكلم في جميع ذلك مسلكاً لم يسلكه أحد قبلي من أرباب هذه الصناعة لصعوبة مرامه وتوعر سبيل التوصل إليه»(٤).

وهذه القضايا هي في الواقع أصول الفنون البديعية، لأن طرق التصرف في المعاني على حسب الجهات المطلوبة، وكيفية تأليفها واقترانها بما يناسبها هي الأصول التي تقوم عليها فنون البديع والبلاغة عامة، من تماثل ومناسبة ومقابلة ومطابقة واستعارة وحقيقة ومجاز وغيرها من الفنون. وهذا نص يثبت فيه حازم نشأة هذه الفنون من اقتران المعاني بما يناسبها، قال: «فانظر مأخذاً يمكنك معه أن تكوِّن المعنى الواحد وتوقعه في حيزين، فيكون له في كليهما فائدة، فتناظر بين موقع المعنى في هذا الحيز وموقعه في الحيز الآخر فيكون من اقتران التماثل، أو مأخذاً يصلح فيه اقتران المعنى بما يناسبه فيكون هذا من اقتران المناسبة، أو مأخذاً يصلح فيه اقتران المعنى بمضاده فيكون هذا مطابقة أو مقابلة، أو مأخذاً يصلح فيه اقتران الشيء بما يناسب مضاده فيكون هذا مخالفة، أو مأخذاً يصلح فيه اقتران الشيء بما يشبهه ويستعار اسم أحدهما للآخر، فيكون هذا من تشافع الحقيقة والمجاز»(٥).

الإشارة في هذا النص واضحة إلى كيفية نشأة فنون البديع عن طريق اقتران المعاني بما يناسبها.

ونجد كذلك هذه الإشارات عند حديثه عن قوانين المعاني والأساليب التي تكون أشد انتساباً لطرق الشعر، ولا سيما المعاني الجمهورية التي يتألف منها الكلام البديع الفصيح: «ولا يمكن أن يتألف كلام بديع عال في الفصاحة إلا منها»(٦).

هذه كلها قوانين موضوعة أساساً لأصول البلاغة قصد معرفة ما يحسن من المعاني وما لا يحسن.

وبإزاء الحديث عن المعاني وجهات اقتباسها تجده يشير إلى ارتباط الأقاويل الشعرية بتناسب الألفاظ ومراتبها واختيارها والتئام بعضها مع بعض، فيعدها مقياساً للكلام البليغ الفصيح: «فلذلك كانت الحاجة في هذه الصناعة إلى اختيار اللفظ وإحكام التأليف

أكيدة جداً»(٧).

إن عناية حازم بالألفاظ والعبارات بجانب المعاني والأفكار نابعة من كون الخطاب الشعري لا يتم إلا بإحداث توازن بين الأسلوب الفكري والأسلوب اللفظي(٨).

والمبدع يرتب المعاني بإزاء ترتيب الألفاظ، لأن الألفاظ لا تخلو من المعاني(٩).

واختيار الألفاظ عند حازم يكون بتجنب الحوشي والغريب والمشترك والعامي، لأن في اللغة العربية سعة تجعل الشاعر والكاتب في مندوحة عن سلوك الضرورات والمذاهب الفاسدة إلا إذا احتاج الشاعر إلى إقامة وزن أو إصلاح قافية؛ كما ينبغي له أن يستقصي العبارات استقصاء ليتجنب ما يوقع كلامه في الغموض نتيجة تقديم أو تأخير، أو فرط في الإيجاز الذي يكون بحذف أو قصر. ومنزلة الشاعر تقاس بمدى قدرته على اختيار العبارات، وتغيير ما يحتاج إلى التغيير، وتجنب تداخل الألفاظ بعضها ببعض، ليستقيم له المعنى، ويسلم من الساقط والهجين والغامض: «ولا يزال ذو المعرفة بتصاريف الكلام والدربه بتأليف النظام يضع اللفظة موضع اللفظة، ويبدل صيغة مكان صيغة حتى يتأتى له مراده، وينال من كمال المعنى بغيته»(١٠).

بهذه النظرات في الألفاظ والمعاني كان حازم يضع القوانين العامة لصناعة البلاغة، فاكتسبت صفة الشمولية والكلية مع القضايا النقدية(١١).

والذي يتتبع هذه القضايا في أبواب الكتاب وفصوله يقف على عمق هذه الشمولية. ومع كل هذا وجدناه يخصص فصولاً لبعض فنون البديع، تتبع فيها الجهات التي يكتسب منها محاسنه مع إيراد شواهده البليغة، وهي:

التفسير

أشار إليه عندما تحدث عن التكرار في المعاني حيث تراعى شروط، منها أن يفهم المعنى من جهات الإبهام، ثم يورد مفسراً من الجهة التي وقع فيها الإبهام، أو يجمل ثم يفصل أو يفصل ثم يجمل(١٢).

وذكر من أنواعه تفسير الإيضاح، وتفسير التعليل، وتفسير السبب، وتفسير الغاية(١٣).

ويعدّ التفسير عند البلاغيين من مراتب الكلام البديع إذا أحسن استعماله، ولذلك جوزوا فيه تكرار المعاني بشروط يجب مراعاتها: «والتكرار لا يجب أن يقع في المعاني إلا بمراعاة اختلاف ما في الحيزين اللذين وقع فيهما التكرار من الكلام»(١٤).

التقسيم

ذكره في كمال المعاني حيث يطلب استيفاء أقسامها دون أن يُغفل قسم منها، أو يتداخل بعض الأقسام في بعض، لأن تداخل الأقسام أو نقصها «يعيب المعاني ويسلب بهجتها ويزيل طلاوتها»(١٥).

وعلى هذا ينحصر التقسيم عند حازم في كمال المعاني وانتظام العبارات: «فأما الكمال في المعاني فباستيفاء أقسامها واستقصاء متمماتها وانتظام العبارات جميع أركانها»(١٦).

التقسيم بهذا التصور يعدّ جزءاً من نظرية حازم في المعاني الشعرية العامة لأن استيفاء المعاني عند الشاعر يدل على قوة طبعه في تصحيح المعاني واجتلابها مرتَّبة، ولذلك كانت مميزات الشاعر المطبوع أن تكون له «القوة على التهدّي إلى العبارات الحسنة الوضع والدلالة على تلك المعاني»(١٧). فلا غرابة أن يجعل حازم ما جاء من الشعر مستوفياً للأقسام نهاية في البلاغة(١٨).

المطابقة

وأصلها التلاؤم في المعنيين المتضادين أو

المتخالفين، وهي أن «يُوضع أحد المعنيين المتضادين أو المتخالفين من الآخر وضعاً متلائماً»(١٩).

والمطابقة عند حازم قسمان، الأولى محضة وهي «مفاجأة اللفظ بما يضاده من جهة المعنى»(٢٠). والثانية غير محضة، وتنقسم: «إلى مقابلة الشيء بما يتنزل منه منزلة الضد وإلى مقابلة الشيء بما يخالفه»(٢١).

ومن المطابقة نوع يقع فيه تخالف وضع الألفاظ لتخالف في وضع المعاني، وتسمى التبديل.

وبالرغم من أن المطابقة تعدّ من أقسام المعاني الخفية، فإن حازماً لم يفرع القول فيها، لأن غايته كانت منصبة على الظواهر البلاغية والشعرية التي لم يعن بها المتقدمون: «وقد تكلم الناس في ضروب المطابقات وبسطوا القول فيها، فلا معنى للإطالة إذ قصدنا أن نتخطى ظواهر هذه الصناعة وما فرغ الناس منه إلى ما وراء ذلك مما لم يفرغ منه»(٢٢).

المقابلة

وتكون بالتوفيق بين المعاني التي يطابق بعضها بعضاً(٢٣).

وإذا لم يشر حازم في المطابقة إلى شعبها الخفية فإنه نصّ في المقابلة على تشعبها وعدم اهتداء الناس إلى أنواعها:

«وأنواع المقابلات تتشعب، وقلّ من تجده يفطن لمواقع كثير منها في الكلام. كما أن كثيراً من الناس يعدّ من المقابلة ما ليس منها»(٢٤). وخفاؤها ناتج من كونها يطلب فيها تلاؤم عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر على جهة من الصحة. والمقابلة على هذا تصبح «أساساً من أسس التفكير والتعبير الإنساني، وليس زخرفاً من القول، أو زينة يمكن الاستغناء عنها»(٢٥).

التفريع

وهو أن يصف الشاعر شيئاً بوصف ما، ثم «يلتفت إلى شيء آخر يوصف بصفة مماثلة، أو مشابهة، أو مخالفة لما وصف به الأول»(٢٦).

ويُشترط في جودته أن تكون النقلة من أحد المعنيين إلى الآخر متناسبة، ولهذا عُدّ ما جاء غير متناسب ولا متشاكل الاقتران، من قبيل التذييل والحشو الذي لا يحسن»(٢٧).

والمذهب المستحسن في هذا الفن مثل فنون البديع الأخرى، الاقتصاد والمراوحة بينه وبين غيره من الفنون. وترتبط هذه الظاهرة عند حازم بالحالة النفسية للمتلقي، إذ يصاب بالسأم والضجر من الفن الواحد المتكرر، وإن كان جيداً في نفسه(٢٨).

وإذا كان حازم مثل البلاغيين المتقدمين يورد من بين شواهد هذا الفن قول الكميت [من البسيط]:

أحلامكم لسقام الجهل شافية
كما دماؤكمُ يشفى بها الكَلَب(٢٩).

لكون الشاعر فرّع من الوصف الأول وصفاً آخر زاد الموصوف توكيداً، فتحقق في الشاهد مذهب التناسب والتشاكل بين المعنيين فإنّ بعض الباحثين المحدثين رأوا في الشاهد صورة مدح غليظ، لا تليق أن تكون محسّناً بديعياً: «أسأل ما رأي النقاد دارسي البلاغة العربية في جعل شاهد هذا التفريع - وهو مدح غليظ فج - محسّناً بديعياً معنوياً وصورة بلاغية جديرة بأن تفرد بالدراسة؟!»(٣٠).

وإذا كان الباحث ينتظر جواباً فإننا نقول: ليست الصورة غليظة فجة كما ادعى، فالشاعر جعل شفاء أحلام الممدوحين سقام الجهل مثل شفاء دمائهم من داء الكلب. وهذه الصورة نابعة من معتقدات العرب، إذ كانت تظن أن دم الرئيس يشفي من عضة الكلْب

الكلبِ(٣١).

وإذا نظرنا إلى معاني الجاهليين والإسلاميين بنظرة معاصرة، فإننا نردّ الكثير من معانيهم لكونها تعبّر عن معتقدات لم تعد مقبولة في عصرنا الحالي. ومن هنا فإنه ينبغي أن نأخذ تلك المعاني بمراعاة المرحلة العقلية التي قيلت فيها، والشعر الإسلامي مثل الشعر الجاهلي «انبثق من صميم حياة الجاهليين وأدى بذلك المعاني التي كانت تتطلبها حياتهم أداءً يتناسب مع درجة عقليتهم»(٣٢).

الإفراط

تناوله في صحة المعاني وسلامتها من الاستحالة الواقعة بالإفراط والمبالغة.

وهذا المبحث عند حازم يقترن بالأوصاف والمحاكاة التي توصف بالصدق أو الكذب؛ فالأوصاف والمحاكاة تكون صادقة إذا اتسمت بالاقتصاد، وتكون في التشبيه خاصة لاقترانه بأدوات مثل الكاف وكأنّ وغيرهما، لكونها موضوعة للدلالة على الشبه من حيث وجوده دون النظر إلى قلته أو كثرته: «وكثير من الناس يغلط فيظن أن التشبيه والمحاكاة من جملة كذب الشعر، وليس كذلك؛ لأن الشيء إذا أشبه الشيء فتشبيهه به صادق»(٣٣).

بينما الكذب يقع في الوصف الذي يتسم بالإفراط وترك الاقتصاد. ومنه ما ترفضه الطباع مثل الاختلاق الامتناعي، وليس «يقع للعرب في جهة من جهات الشعر أصلاً»(٣٤).

وما تقبله الطباع هو الكذب الاختلاقي، فهذا «لا يعاب من جهة الصناعة لأن النفس قابلة له»(٣٥).

إن الإفراط عند حازم يدخل في رؤيته العامة لأغراض الشعر ومعانيه من حيث صحتها وكمالها ومطابقتها للغرض المقصود، فالمعاني تستساغ إذا كانت واجبة واقعة، أو ممكنة معتادة الوقوع، والممكن «لا يخلو من أن تتوافر فيه دواعي الإمكان أو أن تقل، وكلما توافرت دواعي الإمكان كان الوصف أوقع في النفس وأدخل في حيز الصحة»(٣٦). وكذلك الواجب: «لا يخلو من أن يكون متناهياً في الحال التي هو عليها، أو قاصراً فيها، أو وسطاً بين المتناهي والقاصر»(٣٧).

إن ارتباط الكذب بالشعر عند حازم لا يخلو من أن يكون مختلفاً، حيث يقترب من الممكن والواجب، وهذه الصفة موجودة في الشعر العربي، وقد بذل حازم جهداً كبيراً ليدرأ عنه شبهة الكذب المحض(٣٨)، لأن أشعار العرب ترتبط بحياة الناس ومشاغلهم العامة.

أما الشعر الذي ينطبق عليه الاختلاق الامتناعي والكذب إلى حد المستحيل فهو الشعر اليوناني القائم على الخرافات أو الأساطير، وهذه تدخل في المعاني المستحيلة التي لا تحقق غرضاً فنياً في الشعر لكونها لا تصح في الوجود ولا تتصور في الذهن(٣٩).

الالتفات

وهو من صور الانعطاف بالكلام من جهة إلى أخرى حيث يجمع: «بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض، وأن ينعطف من إحداهما إلى الأخرى انعطافاً لطيفاً من غير واسطة، تكون توطئة للصيرورة من أحدهما إلى الآخر على جهة من التحول»(٤٠).

والكلام في الصورة الالتفاتية عند حازم لا يقصد في الغرض الأول «وإنما يسنح للخاطر سُنوحاً بديهياً»(٤١).

وإذا كان يسنح للخاطر فإن صنوفه كثيرة، لكن أصحاب البديع حصروه في ثلاثة أصناف.

الأول يوهم ظاهره أنه كريه بينما هو مستحب، فيلتفت الشاعر ليزيل ذاك الوهم.

الثاني يلتفت الشاعر فيه ليصرف الكلام إلى غرض جميل.

الثالث يقصد به الشاعر إزالة نقض خفي عن الشيء(٤٢).

هذه الأصناف التي أشار إليها حازم تظهر بلاغة هذا الفن، وتحصره في الانتقال من أسلوب إلى آخر. وقد أشار البلاغيون قبل حازم إلى أثر الالتفات في إحداث الافتتان في الكلام وتفتيقه، والوظيفة التي يقوم بها في إيقاظ السامع للإصغاء أكثر مما يفعل الأسلوب المسترسل، لأن الالتفات لون من ألوان تشقيق الكلام على وجوه يستحسنها المتلقي(٤٣).

تناسب المعاني

بالرغم من أن حازماً شغل في كتابه بالبحث عن المعاني والأساليب فإنه خصص مبحثاً تناول فيه المعاني المتقاربة والمتناسبة سماه: «معلماً دالاً على طرق العلم بوقوع المعاني المتقاربة متمكنة».

استعرض في هذا المعلم الشواهد المتقاربة المعاني، من ذلك ذكره لقول الفرزدق [من الطويل]:

وإنك إذ تهجو تميماً وترتشي
سرابيل قيس أو سُحُوق العمائم
كمهريق ماء بالفلاة وغرّه
سراب أذاعته رياح الشمائم(٤٤)

وقول ابن هرمة [من المتقارب] :

وإني وتركي ندى الأكرمين
وقدحي بكفي زناداً شحاحا
كتاركة بيضها بالعرا
وملبسة بيض أخرى جناحا(٤٥)

فقد لاحظ أن بيت الفرزدق الثاني مناسب لمعنى بيت ابن هرمة الأول، ومعنى بيت ابن هرمة الثاني مناسب لمعنى بيت الفرزدق الأول؛ فلو جمعنا بين هذه الأبيات لكان المعنى صحيحاً متمكناً(٤٦).

والتمكن في المعاني عند حازم يكون بجهات متعددة، ذكرها في غير هذا المعلم، من ذلك ما ذكره في: «معلم دال على طرق العلم بالوجوه التي بها يقع التدافع بين بعض المعاني وبعض»(٤٧). و«معلم دال على طرق العلم بتحسين هيآت العبارات والتأنق في اختيار موادها، وإجادة وضعها ورصفها»(٤٨).

الاستطراد والتخلص والإطراد

هذه الفنون تلتقي مع الالتفات عند حازم لكونها تندرج كلها في انعطاف الكلام من جهة إلى أخرى، ومن غرض إلى آخر، لكن توجد بينها فروق متميزة، وقد نصّ على الفرق بين التخلص والاستطراد عند أصحاب البديع، فقال: «وأهل البديع يسمون ما كان الخروج فيه بتدرج تخلصاً، وما لم يكن بتدرج ولا هجوم ولكن بانعطاف طارئ على جهة من الالتفات استطراداً»(٤٩).

الاستطراد - كما يبدو من تعريف حازم - يأتي على جهة الانعطاف الطارئ مثل الالتفات، أما التخلص فيتم بنوع من التدرج، ولذلك تجده يذم طريقة القدماء في الانتقال من غرض إلى آخر باستعمال: دع ذا، وعد القول في هذا(٥٠)، ويستحسن طريقة المحدثين التي يتم التخلص فيها بتدرج وتلطف، وذلك أن النفوس تجد راحة في نقلها من غرض إلى آخر بلطف التحيل. «وتجد نبْوة ما في انتقالها إليه من غير احتيال وتلطف في ما يجمع بين حاشيتي الكلام ويصل بين طرفيه الوصل الذي يوجد للكلام به استواء والتئام»(٥١).

هذه الخاصية أشار إليها النقاد قبل حازم(٥٢)، لكن حازماً نصّ على وجوه عديدة تجنب التخلص من الهجنة، ذكر منها التحرز من انقطاع الكلام، ومن التضمين، والحشو والإخلال، واضطراب الكلام، وقلة تمكن القافية(٥٣).

والسبب في ذلك أن الأبيات التي تأتي بعد التخلص هي أول: «منقلة من مناقل الفكر في ما تخلصت إليه، فيجب أن يعتمد فيه ما يكون محركاً للنفس لتستأنف هزة ونشاطاً لتلقي ما يرد»(٥٤).

أما الاطراد فقد اكتفى بذكر شاهد من قول دريد بن الصمة [من الطويل]:

قتلنا بعبد الله خير لداته

ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب(٥٥)

ولم يفصل القول في هذا الفن مثل ما فعل في الالتفات والاستطراد والتخلص.

وإذا كان حازم قد اجتهد في بيان محاسن هذه الفنون لأنها تتيح للمبدع أن يتدرج في الكلام من غرض إلى آخر بحسن وتلطف، فإن الفن الأخير «الاطراد» وجد من بين الباحثين المحدثين من نعته بالعبث، وتمنى - لو كان الأمر بيده - أن يطرده من وجوه التحسين جملة(٥٦).

وهذه مبالغة ولا سيما أن هذا البحث ذكر في هذا الموضع بيت دريد بن الصمة، وهو من أجود الأبيات في تسلسل الأسماء بسهولة دون أن يظهر على الشاعر تكلف أو تمحّل، وقد أشار النقاد إلى هذه الخصائص(٥٧).

المطالـــع

لمطالع القصائد تأثير كبير على السامع، لأن النفس تتشوق لاستفتاح الكلام، فما كان حسناً تنبسط له، وما كان قبيحاً تنقبض منه، ولذا كانت جودة المطالع مرتبطة بحسن المسموع والمفهوم، وجزالة الألفاظ، والدلالة على الغرض المقصود.

وقد حدد حازم هذه السمات بقوله: «وهو أن تكون العبارة فيه حسنة جزلة، وأن يكون المعنى شريفاً تاماً، وأن تكون الدلالة على المعنى واضحة، وأن تكون الألفاظ الواقعة فيه ولا سيما الأولى والواقعة في مقطع المصراع مستحسنة غير كريهة من جهة مسموعها ومفهومها(٥٨).

والشاعر البليغ يحرص على هذه السمات في المطالع لتجد قصائده قبولاً واستحساناً من السامعين، ولتكون المطالع رائدة ما بعدها إلى القلب، لكن بعض الشعراء يتظاهرون بتجنب التنقيح والروية فلا يكلفون أنفسهم عناء إجادة المطالع والنظر فيها قبل إخراج شعرهم. ويبدو أن هذا المذهب غير مختار عند حازم، ولو ادعى أصحابه سمة الطبع، ولذلك وجدته عندما ذكر محاسن المطالع والمقاطع يقول: «فهذا ما يجب في المطالع والمقاطع بهذا الاعتبار على المذهب المختار»(٥٩). ثم ذكر مذهب بعض الشعراء الذين أخذوا أنفسهم بنقيض المذهب السابق، فقال: «ومن الشعراء من يأخذ في النقيض من هذا فلا يعتني بالمبدأ ولا المقطع، فيختم كيفما اتفق ويبدأ كيفما تيسر له، ويعتمد هذا من يريد إعفاء خاطره، أو من يريد أن يظهر أنه لم يعتمد الروية والتنقيح في كلامه»(٦٠).

وإذا كان حازم قد اكتفى بالإشارة إلى هذا المذهب دون أن يذمه أو يورد شواهد منه، فإن كلامه السابق تأكيد لاستحسانه مذهب التجويد حتى لا تنقبض النفس من أول بيت في القصيدة، وهذا ما حدثنا عنه النقاد قبل حازم؛ فقد ذكر أن ذا الرمة أنشد عبد الملك بن مروان قصيدته [من البسيط]:

ما بال عينك منها الماء ينسكب

كأنه من كلى مفرية سرب(٦١)

فتوهم عبد الملك أنّه يعرض به لأن عينه كانت تدمع أبداً لوجود ريشة بها، فقال له: «وما سؤالك عن هذا يا جاهل؟! ومقته. وأمر بإخراجه»(٦٢).

إن الشاعر في هذا المقام لو راعى حالة المخاطب لتجنب مثل هذا الموقف، وإن كان الخطاب في البيت يقصد به نفسه على سبيل

التجريد.

مثل هذا الموقف يقتضي من الشاعر أن يراجع مطالع قصائده ويراعي حالات المخاطبين قبل إلقاء قصيدته، ولا سيما أن الشعر العربي كان ينشد.

هذه القضايا البديعية التي ذكرناها عند حازم ارتبطت بجهات تأصيل الشعر في معناه ومبناه، فكانت أشدّ علقة بنظريته في المعاني والأساليب؛ فالطباق والمقابلة والتفريع والتقسيم والتفسير والالتفات والاستطراد والتخلص لا تحسن إلا إذا وفّر لها الشاعر سمات الجمال في اللفظ والمعنى من حيث الانتظام والكمال والاستيفاء، ولذلك وجدنا حازماً يشير في بعض هذه المباحث وغيرها إلى مصطلحات «انتظام العبارات» و«الكمال في المعاني» و«المعنى المستوفى»(٦٣)، وتلاؤم العبارة للمعنى(٦٤)، وأن «يكون اللفظ طبقاً للمعنى تابعاً له»(٦٥)، ووضع «اللفظ إزاء اللفظ الذي بين معنييهما تقارب وتناظر»(٦٦) وحسن تأليف الألفاظ الذي يزيد الكلام بياناً وحسن ديباجة(٦٧).

كل هذه الإشارات تدل على أن حازماً كان يرى وجوب تأصيل المعنى واللفظ في أساليب البديع.

الحواشي

* حازم بن محمد أبو الحسن: أديب من العلماء له ديوان شعر، من أهل قرطاجنّة بشرقي الأندلس تعلم بها وبمرسيه، وأخذ عن علماء غرناطة وأشبيلية ثم هاجر إلى مراكش ومنها إلى تونس، فاشتهر، وعُمّر، وتوفي بها. من كتبه «مناهج البلغاء وسراج الأدباء» وله قصيدة مقصورة، شرحها الشريف الغرناطي في كتاب «رفع الحجب المنشورة على محاسن المقصورة» (المجلة. عن كتاب الأعلام ٢: ١٥٩).

١ - منهاج البلغاء: ص ٢١.
٢ - عصفور، جابر، مفهوم الشعر، ص ١٣٦.
٣ - عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٥٤٥.
٤ - منهاج البلغاء، ص ١٨.
٥ - المصدر ذاته، ص ١٤ - ١٥.
٦ - المصدر ذاته، ص ٢٥.
٧ - المصدر ذاته، ص ١٢٩.
٨ - أديوان، محمد (مرقون)، قضايا النقد عند حازم القرطاجني من خلال كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٤٠٥
٩ - البلاغة والأسلوبية، ص ٢٨.
١٠ - منهاج البلغاء، ص ١٧٨.
١١ - عصفور، جابر، مفهوم الشعر، ص ١٣٢
١٢ - منهاج البلغاء، ص ٣٦.
١٣ - المصدر ذاته، ص ٥٧.
١٤ - المصدر ذاته، ص ٣٦.
١٥ - المصدر ذاته، ص ٥٦.
١٦ - المصدر ذاته، ص ١٥٤.
١٧ - المصدر ذاته، ص ٢٠٠.
١٨ - المصدر ذاته، ص ١٥٦.
١٩ - المصدر ذاته، ص ٤٨.
٢٠ - المصدر ذاته.
٢١ - المصدر ذاته، ص ٤٩.
٢٢ - المصدر ذاته، ص ٥١.
٢٣ - المصدر ذاته، ص ٥٢.
٢٤ - المصدر ذاته.
٢٥ - البلاغة العربية في ثوبها الجديد: علم البديع، ص ٥٩.
٢٦ - منهاج البلغاء، ص ٥٩
٢٧ - المصدر ذاته، ص ٦١.
٢٨ - المصدر ذاته.
٢٩ - المصدر ذاته، ص ٥٩. وشعر الكميت ١: ٨١. والعمدة ١: ٦٣٢.
٣٠ - عبد العزيز قلقيله، عبده، البلاغة الاصطلاحية، ص ٣٥٥.
٣١ - انظر شرح شعر الكميت، ١: ٨١.
٣٢ - سركيس، إحسان، مدخل إلى الأدب الجاهلي، ص ١٠٧.
٣٣ - منهاج البلغاء، ص ٧٥.

٣٤ - المصدر ذاته، ص ٧٧.
٣٥ - المصدر ذاته، ص ٧٨.
٣٦ - المصدر ذاته، ص ١٣٣.
٣٧ - المصدر ذاته.
٣٨ - نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم، ص ٢٠٢.
٣٩ - منهاج البلغاء، ص ٧٦.
٤٠ - المصدر ذاته، ص ٣١٥.
٤١ - المصدر ذاته، ص ٣١٤.
٤٢ - المصدر ذاته، ص ٣١٥ - ٣١٦.
٤٣ - البلاغة الاصطلاحية، ص ٣٤٥.
٤٤ - ديوانه، ص ٨٥٦. والموشح، ص ٣٠٠.
٤٥ - عيار الشعر، ص ١٢٥. والموشح، ص ٣٠٠.
٤٦ - منهج البلغاء، ص ١٥٨ - ١٥٩.
٤٧ - المصدر ذاته، ص ١٤٧.
٤٨ - المصدر ذاته، ص ٢٢٢.
٤٩ - المصدر ذاته، ص ٣١٦.
٥٠ - المصدر ذاته، ص ٣١٧.
٥١ - المصدر ذاته، ص ٣١٩.
٥٢ - الوساطة، ص ٤٨. والعمدة، ١:٤١٢.
٥٣ - منهاج البلغاء، ص ٣١٢.
٥٤ - المصدر ذاته، ص ٣٢١.
٥٥ - المصدر ذاته، وديوانه، ص ٢٧.
٥٦ - البلاغة الاصطلاحية، ص ٣٥٩.
٥٧ - العمدة، ٢:٦٩٨. ورفع الحجب، ٢:٢٧٢.
٥٨ - منهاج البلغاء، ص ٢٨٢.
٥٩ - المصدر ذاته، ص ٢٨٥.
٦٠ - المصدر ذاته، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.
٦١ - ديوانه، ١:٣٣.
٦٢ - العمدة، ١:٣٩٤.
٦٣ - منهاج البلغاء، ص ١٥٤.
٦٤ - المصدر ذاته، ص ٥٢.
٦٥ - المصدر ذاته، ص ٢٢٣.
٦٦ - المصدر ذاته، ص ٢٢٤.
٦٧ - المصدر ذاته.

المصادر والمراجع

- أديوان، محمد . قضايا النقد الأدبي عند حازم القرطاجني من خلال كتابه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء: دراسة تحليلية مقارنة بين القديم والحديث . الرباط: كلية الآداب.
- الجرجاني، علي بن عبد العزيز . الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي . بيروت : دار القلم.
- ديوان الفرزدق . بيروت : دار صادر، ١٩٦٦.
- السبتي، أبو القاسم الشريف . رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة . تـ محمد الحجوي (مرقون).
- سركيس، إحسان . مدخل إلى الأدب الجاهلي، ١٩٧٩.
- شعر الكميت . جمع وتحقيق داود سلوم . بغداد، ١٩٦٩.
- شيخ أمين، بكري . البلاغة العربية في ثوبها الجديد: علم المعاني . ـ ط ٢، ١٩٩١.
- عباس، إحسان . تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ١٩٧١.
- عبد المطلب، محمد . البلاغة والأسلوبية .القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.
- عصفور، جابر . مفهوم الشعر: دراسة في التراث النقدي . ـ ط ٢. دار التنوير، ١٩٨٢.
- العلوي، ابن طباطبا . عيار الشعر . تـ محمد زغلول سلام، ١٩٨٠.
- القرطاجني، حازم . منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تـ محمد الحبيب ابن الخوجة . ـ ط ٢ . بيروت : دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١.
- قصبجي، عصام . نظرية المحاكاة في النقد العربية القديم . دار العلم العربي، ١٩٨٠.
- قليقلة، عبد العزيز . البلاغة الاصطلاحية . دار الفكر العربي، ١٩٨٧.
- القيرواني، ابن رشيق . العمدة في محاسن الشعر وآدابه . تـ محمد قرقزان . بيروت : دار المعرفة.
- المرزباني، أبو عبد الله . الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر . تـ علي محمد البجاوي . دار الفكر العربي.

الانزياح الصوتي الشعري

الدكتور تامر سلوم

جامعة تشرين - اللاذقية

تمهيد

يحاول هذا البحث الإجابة على عدد من الأسئلة أهمها: ما خصائص الانحراف الصوتي الشعري، وما وظيفته، وأين يلتقي التحريف الصوتي الشعري مع النظام المعياري للأصوات أو مع ما يسمى بدرجة الصفر الصوتية.

وإذا كانت درجة الصفر الصوتية تقوم على مجموعة من القواعد الصوتية التي تتسم بالانضباط والالتزام والاستقرار لتحقق هدفاً أساسياً هو (التوصيل) فإن الانزياح، أو الانحراف الصوتي الشعري، هو انتهاك لهذه القواعد والقوانين وخرق لها، ويستخدم حداً أقصى من (الأمامية) لتصبح الوظيفة (الجمالية) هي المهيمنة.

● يفـرض علينا تناول هذا الموضـوع أن نطرح منذ البداية السؤال التالي: أين يلتقي الانحراف الشعري الصوتي، ونظام الأصوات المعياري، وأين يفترقان؟

ولنبدأ الحديث عن طبيعة الانحراف الشعري فنقول: إنه انحراف عن النظام الصوتي المعياري، أو عما يسمّى بدرجة الصفر الصوتية، وخرق له، ويستخدم حداً أقصى من «الأمامية» لتصبح الوظيفة الجمالية هي المهيمنة.

أما درجة الصفر الصوتية فإنها مجموعة من القواعد الصوتية التي تستخدم في الكتابة غير الشعرية، وهي تتسم بالانضباط والالتزام والاستقرار لتحقق هدفاً أساسياً هو التوصيل. ويمكن لهذه الدرجة أن تحدد من خلال تحليل مستويين متراتبين:

أولهما: ما يطلق عليه **«المستوى تحت اللغوي»**. وهو مستوى الخواص الخلافية في اللغة، التي تشكل بذاتها تعبيراً مثل مخارج الحروف وصفاتها. والنظام الصوتي للغة يقسّم الأصوات اللغوية إلى ثمانية وعشرين حرفاً. هي:

١ – الهمزة	ورمزها	ء
٢ – الهاء	ورمزها	هـ
٣ – العين	ورمزها	ع
٤ – الحاء	ورمزها	ح
٥ – الغين	ورمزها	غ
٦ – الخاء	ورمزها	خ
٧ – الكاف	ورمزها	ك
٨ – القاف	ورمزها	ق
٩ – الضاد	ورمزها	ض
١٠ – الجيم	ورمزها	ج
١١ – الشين	ورمزها	ش
١٢ – الياء	ورمزها	ي
١٣ – اللام	ورمزها	ل
١٤ – الراء	ورمزها	ر
١٥ – النون	ورمزها	ن
١٦ – الطاء	ورمزها	ط
١٧ – الدال	ورمزها	د
١٨ – التاء	ورمزها	ت
١٩ – الصاد	ورمزها	ص
٢٠ – الزاي	ورمزها	ز
٢١ – السين	ورمزها	س
٢٢ – الظاء	ورمزها	ظ
٢٣ – الذال	ورمزها	ذ
٢٤ – الثاء	ورمزها	ث
٢٥ – الفاء	ورمزها	ف
٢٦ – الباء	ورمزها	ب
٢٧ – الميم	ورمزها	م
٢٨ – الواو	ورمزها	و

أما مخارج الحروف فهي عشرة مخارج:

١ – شفوي.
٢ – شفوي أسناني.
٣ – أسناني.
٤ – أسناني لثوي.
٥ – لثوي.
٦ – غاري.
٧ – طبقي.
٨ – حلقومي.
٩ – حلقي.
١٠ – حنجري.

أما الصفات فقد قسّمها النظام الصوتي للغة على النحو التالي:

١ – الشدة والرخاوة، والمركب والمتوسط.
٢ – الجهر والهمس.
٣ – التفخيم والترقيق.

وجعل المتوسط أربعة أقسام:

١ – المنحرف.
٢ – المكرر.
٣ – الأنفي.
٤ – اللين.

وإذا تصورنا النظام الصوتي للغة في

المخارج	الصفات												
	شديد				رخو				مركب	متوسط			
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور فقط	منحرف (جانبي)	مكرر	أنفي	لين
	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق					
شفوي		ب										م	و
شفوي أسناني								ف					
أسناني					ظ	ذ		ث					
أسناني لثوي	ض	د	ط	ت		ز	ص	س					
لثوي										ل	ر	ن	
غاري								ش	ج				ي
طبقي				ك									
حلقومي (لهوي)			ق		غ		خ						
حلقي						ع		ح					
حنجري				ء				هـ					

النظام الصوتى للفصحى المعاصرة

صورة جدول فسنجد أن مجموع القيم الخلافية المتصلة بالمخارج تمثل البعد الرأسي من أبعاد هذا الجدول. وفي الوقت نفسه نجد الشدة والرخاوة ونحوهما من طرق النطق تمثل مجموعة من القيم الخلافية، تفهم كل واحدة منها في مقابل مجموع الأخريات. ومثل ذلك يقال عن الجهر في مقابل الهمس، وعن التفخيم في مقابل الترقيق.

وهذه الصفات جميعاً تمثل البعد الأفقي للنظام الصوتي حين يوضع في جدول، فجدول الحروف إذاً يعدّ إيضاحاً مناسباً للعلاقات التي تفرق بين كل حرف وكل حرف آخر في نظام اللغة. وهذا التفريق بواسطة القيم الخلافية من حيث المخارج أو من حيث الصفات هو أهم ما تحرص عليه اللغة لتصل به إلى أمن اللبس.

وملخص ما سبق أن النظام الصوتي للغة يقسم الأصوات اللغوية إلى حروف Phonemes بوساطة اعتبار القيم الخلافية للوظائف أي المعاني التي تعد للأصوات في استعمالها في الألفاظ التي تتحقق بها الكلمات وبوساطة التقسيمات العضوية والصوتية التي تعدّ حقلاً آخر من حقول هذه القيم الخلافية ويعدّ الحرف مقابلاً استبدالياً لكل حرف يمكن أن يحل محله، فيحمل بذلك جرثومة سلبية من المعنى الوظيفي، وهكذا نجد القيم الخلافية من أهم مقومات التنظيم الصوتي في اللغة، تحرص اللغة على مراعاتها محافظة على وضوح المعنى(١).

وفيما سبق جدول يشرح النظام الصوتي للغة العربية الفصحى يوضح ما بين كل حرف وكل حرف آخر من قيم خلافية، يمتاز بها كل منهما في إطار النظام الصوتي.

ثانيهما : المستوى الأولي: وهو المتعلق بالحروف التي تشكل مقاطع تقوم بدورها في تكوين الكلمات، وتقسم المقاطع الصوتية التي تبنى عليها في بعض الأحيان الأوزان الشعرية إلى نوعين: متحرك (open) وساكن (closed). والمقطع المتحرك هو الذي ينتهي بصوت لين قصير أو طويل، أما المقطع الساكن فهو الذي ينتهي بصوت ساكن (يمكن أن يسمى المقطع المتحرك بالمفتوح، ويمكن أن يسمى الساكن بالمغلق). فالفعل الماضي الثلاثي «فَتَحَ» يتكون من ثلاثة مقاطع متحركة، في حين أن مصدر هذا الفعل «فتحٌ» يتكون من مقطعين ساكنين. والمقاطع خمسة أنواع هي:

(متحرك)

١ - صوت ساكن + صوت لين قصير.
٢ - صوت ساكن + صوت لين طويل.

(ساكن)

٣ - صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن.
٤ - صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن.
٥ - صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان.

- ومن (المستوى الأولي) نظام النبر. وهو نظام يبنى على ترتيب المقاطع. والنبر بحكم التعريف:

١ - النبر فاعلية فيزيولوجية تتخذ شكل ضغط أو أثقال يوضع على عنصر صوتي معين في كلمات اللغة.

٢ - النبر إضافة كمية من الطاقة الفسيولوجية لنظام إنتاج الكلام.. موزعة على القنوات الرئوية والتصويتية والنطقية.

٣ - النبر نشاط في جميع أعضاء النطق في وقت واحد. أو الضغط على مقطع خاص من كل كلمة، ليجعله بارزاً أوضح في السمع من غيره من مقاطع الكلمة.

٤ - النبر احتشاد الجهاز الصوتي عند إخراج بعض المقاطع دون بعضها، وتميّزها عنها بالشدة أو اللينة (الارتفاع أو الانخفاض).

٥ - النبر انطباع من طاقة زائدة في النطق للمقطع المنبور، ينتج عنها نطق المقطع أعلى وأطول من المقاطع الأخرى في الكلمة نفسها.

٦ - النبر اسم يعطى للجهد العضلي الأقوى الذي يمكن أن نشعر به متصلاً ببعض المقاطع في مقابل مقاطع أخرى.

٧ - النبر البروز المعطى لمقطع واحد داخل ما يشكل الوحدة البروزية التي تطابق في معظم اللغات ما يسمى بالكلمة.

٨ - النبر إشباع مقطع من المقاطع بأن يقوي إما ارتفاعه الموسيقي أو شدته أو مداه أو عدة عناصر من هذه العناصر في الوقت نفسه، وذلك بالنسبة إلى العناصر ذاتها في المقاطع المجاورة.

٩ - النبر ازدياد وضوح جزء من أجزاء الكلمة في السمع عن بقية ما حوله من أجزائها.. أو هو التوتر والعلو في الصوت اللذان يتصف بهما موقع معين من مواقع الكلام.

وجميع هذه التعريفات يتفق على أن النبر يقتضي طاقة زائدة أو جهداً عضلياً إضافياً، ولهذا يقول جونز: «المقطع المنبور بقوة ينطقه المتكلم بجهد أعظم من المقاطع المجاورة له في الكلمة أو الجملة، فالنبر إذاً نشاط ذاتي للمتكلم ينتج عنه نوع من البروز prominence لأحد الأصوات أو المقاطع بالنسبة لما يحيط به».

ومرجع هذا الوضوح الصوتي إلى الخصائص الطبيعية للصوت. فالأصوات تختلف من ثلاث جهات: «من جهة شدتها، ودرجتها، ونوعها».

ولهذه الأنواع الثلاثة من الاختلاف أساس جسمي في عمل الآلات المصوتة، إذا كانت الأصوات صادرة عن آلات، أو في عمل الوترين الصوتيين في الحنجرة مع سائر الأجهزة الصوتية المساعدة،

إذا كان الصوت بشرياً؛ فالتموجات الهوائية الصادرة عن هذه الأجهزة تختلف من حيث سعتها (أي تباعد قمة الموجة وقاعها) ومن حيث قصر الموجات أو تقارب بعضها من بعض، ومن حيث شكل الموجة (إما استواء خطوطها وإما انطواؤها على ما يشبه موجات صغيرة في داخلها). فعلى قدر سعة الموجة تكون شدة الصوت، ويتبع ذلك استمراره مدة أطول من الزمن إن لم يعقه عائق. وعلى قدر قصر الموجات أو تقاربها (ويعبر عن ذلك عادة بعدد الموجات في الثانية) تكون حدة الصوت أو غلظه. وعلى حسب غنى الموجة بالمويجات الداخلية تكون تلك الصفة المميزة للأصوات الموسيقية عن الأصوات غير الموسيقية المتشابهة لها في الدرجة والشدة، وهي التي يمكننا أن نعبر عنها بثراء الصوت الموسيقي، ونحسها في امتلاء الصوت الموسيقي لنغمات ثانوية تنسجم معه، أي أن بينها وبينه علاقة ندركها بالأذن، ويمكن أن نعبر عنها بالقياس.

وشدة الصوت هي التي تصاحب ما يسميه اللغويون بالنبر Stress أو Accent، ويظهر في الشعر فيسمى ارتكازاً Actus وبذلك تتميز بعض المقاطع من بعض بالشدة أو اللين (الارتفاع أو الانخفاض). ويكون ذلك ناشئاً عن احتشاد الجهاز الصوتي عن إخراج بعض المقاطع دون بعض. أما درجة الصوت فيترتب على اختلاف المقاطع حدة وغلظة (ويعبر عن ذلك أيضاً في الاصطلاح الموسيقي بالارتفاع والانخفاض، ولذلك يجب أن نحترس من الخلط في معنى الشدة ومعنى الدرجة، الذي يمكن أن ينشأ من اشتراك المعنى في لفظتي الارتفاع والانخفاض، بين الاصطلاح العلمي وبين العرف العام).

كما تتفاوت شدة الصوت في المقاطع المختلفة، تتفاوت درجته كذلك، فتكون بعض المقاطع أكثر حدة من بعض، ومعنى ذلك بالاصطلاح الموسيقي أن المتكلم في حديثه

العادي ينتقل بين عدد من درجات السلم الموسيقية. وهذا الثقل أو التنغيم هو ما سماه إبراهيم أنيس «موسيقى الكلام» في محاولة لترجمة المصطلح الإنكليزي Intention(٤).

والقانون العام للنبر يلخص في أنه لمعرفة موضع النبر في الكلمة العربية، ينظر أولاً إلى المقطع الأخير، فإذا كان من النوعين الرابع والخامس كان هو موضع النبر، وإلا نظر إلى المقطع الذي قبل الأخير، فإن كان من النوع الثاني أو الثالث حكمنا بأنه موضع النبر، أما إذا كان من النوع الأول، نظر إلى ما قبله، فإن كان مثله أي من النوع الأول أيضاً كان النبر على هذا المقطع الثالث حين نعد من آخر الكلمة، ولا يكون النبر على المقطع الرابع حين نعد من الآخر إلا في حالة واحدة وهي أن تكون المقاطع الثلاثة التي قبل الأخير من النوع الأول.

وجدير بالملاحظة أن النوع الرابع والخامس من المقاطع في اللغة العربية محدودة الاستعمال لا نراه إلا متطرفاً وفي حالة الوقف. وإن موضع النبر - عندما يقع على المقطع الثالث حين تعاد المقاطع من آخر الكلمة - يقابل في الموازين الصرفية فاء الفعل الماضي المجرد والمزيد مثل كتب، فرحَ، صعبَ، اجتمع، انكسر، وكذلك فاء بعض المصادر مثل لعب، فرح، أو الأسماء مثل عنب، بلح(٥).

ومن هذا المستوى الأولي القيم الخلافية التي تتمايز بها وظائف الأصوات في الكلمات التي تمكننا من الكشف عن النظام الصوتي للغة. وقد اتضحت من خلال الدراسات الصوتية المعاصرة صلة الصوت بالفروق القائمة بين المفردات من حيث المعنى، ومن ثم أصبح «الاستبدال» في عرف المحدثين، أو «المعاقبة» التي عرفها النحاة العرب، وسيلة من وسائل الكشف عن الوحدات الصوتية التي تعين على التفريق بين المعاني. فالفروق بين «ساح» و«صاح» وبين «مال» و«نال»، وكذلك بين «قال» و«قاد» أو «قال» و«قيل» فروق صوتية، أدت أولاً إلى معرفة أن السين والصاد وحدتان مختلفتان، وكذلك الميم والنون، ومثلهما اللام والدال، وكذلك ألف المد وياؤه. وعرفنا من دراسات المحدثين كيف نفرق في الفهم بين «الصوت» و«الوحدة الصوتية»، وأنه إذا جاز لوحدتين صوتيتين في بعض المجالات أن تشتركا في مخرج واحد فإن هناك من الحلول ما يمكننا من نسبة الصوت المنطوق في هذا المخرج إلى إحداهما. فإذا كانت النون في «ينبغي» تنطق كما تنطق الميم (أي في مخرج الميم) فإننا سنعلم من موقع الصوت - وهو موقع نون المطاوعة - أنه ينتمي إلى النون لا إلى الميم. وإذا كان الصوت الشبيه به في «عنبر» ينطق في مخرج الميم أيضاً فإننا سنعلم من جمع الكلمة جمع تكسير على «عنابر» أن الجمع رد الصوت إلى أصله، أو بعبارة أخرى إلى مخرجه الذي ينسبه إليه نظام اللغة(٦).

خذ مثلاً آخر لفظ «طاب» أي صار طيباً وهو يشتمل على أصوات ثلاثة، أولها صحيح وثانيها معتل وثالثها صحيح. فإذا استبدلنا بالصوت الأول وهو (ط) صوتاً آخر مثل (ش) أمكن أن يحل هذا الصوت محل الصوت الأول ويتغير معنى الكلمة تبعاً لعملية «الاستبدال». فإذا استبدلنا بصوت (ب) الذي في آخر الكلمة صوتاً آخر مثل (ل) تغير المعنى مرة أخرى إذ صار اللفظ «طال». فإذا استبدلنا بصوت (ا) الذي في الوسط صوت (ل) صار اللفظ «طلب» وتغير المعنى أيضاً. والمغزى في كل حالة أن الصوت ما دام يحل محل صوت آخر فلا يمكن أن ينتمي إلى الحرف الذي ينتمي هذا الصوت الآخر إليه. فالحرف الذي ينتمي إليه الصوت الأول من «طاب» غير الحرف الذي ينتمي إليه الصوت الأول من

«شاب»، والحرف الذي ينتمي إليه الصوت الأخير من «طاب» غير الحرف الذي ينتمي إليه الصوت الأخير من «طال»، والحرف الذي ينتمي إليه الصوت الأوسط من «طاب» غير الحرف الذي ينتمي إليه الصوت الأوسط من «طلب». ولكننا لو أردنا مثلاً أن نستبدل بالصوت المفخم الذي ينتمي إليه حرف الألف في وسط «طاب» صوتاً آخر مرققاً نزعمه من الألف أيضاً لعز ذلك على ذوق اللغة العربية ولتنافى مع طريقتها في مصاقبة الأصوات، لأن الطاء المفخمة لا تتلوها ألف مرققة في عرف العربية الفصحى، فهذا الموقع بعد الطاء مباشرة يتطلب الألف المفخمة، ويتأبى على المرققة. ومعنى ذلك ببساطة أن الصوتين المفخم والمرقق اللذين أبى أحدهما أن يحل محل الآخر ينتميان إلى حرف واحد هو حرف الألف، ويسمى أولهما «الألف المفخمة»، ويسمى ثانيهما «الألف المرققة». وهكذا نرى أن التداخل في الموقع يعني اختلاف الانتماء إلى الحرف، وأن التخارج في الموقع معناه الانتماء إلى حرف واحد بعينه. كل ذلك يحكي قصة عملية الاستبدال واستخدامها في تحديد الحروف، أي في تكوين الجهاز الصوتي للغة.

والحرف الذي يحل محل الآخر يسمى «مقابلاً استبدالياً» أو Substitution counter لهذا الحرف الآخر. ذلك بأنه تسبب بحلوله محل الحرف الآخر في تغيير معنى الكلمة، ومن ثم أصبح يحمل على عاتقه «بضعة» من تبعة المعنى الجديد. وهذه أول بضعة من المعنى الوظيفي، يمكن الكشف عنها في اللغة، وهي وظيفة الحرف بوصفه مقابلاً استبدالياً أي بوصفه صالحاً للحلول محل واحد أو أكثر من الحروف الأخرى، في النظام الصوتي نفسه. فإذا نظرنا إلى الباء في «طاب» وجدنا أنها تدل على معنى معين هو صلاحيتها للحلول محل عدد من الحروف الأخرى، وقد عددنا منها «اللام»، ونضيف هنا الراء في «طار» والفاء في «طاف» والشين في «طاش». كما أن الطاء تدل على معنى معين، هو أنها مقابل استبدالي للتاء في تاب والثاء في ثاب والخاء في خاب والذال في ذاب والراء في راب والسين في ساب والشين في شاب والعين في عاب والغين في غاب والنون في ناب والهاء في هاب؛ فمعناه أنها صالحة للحلول محل أي واحد من هذه الحروف جميعاً. وهذه البضعة من المعنى التي تنسب إلى الحرف بضعة سلبية؛ فمعنى الطاء في طاب أنها ليست تاء ولا ثاء ولا خاء ولا ذالاً... إلخ.

ومثل «الاستبدال في تغيير معنى الكلمة وإثبات قدرة الحرف على حمل جرثومة المعنى مثل عمليتي «الإضافة» و«الاستخراج»، فإذا أضفنا الميم في أول كلمة «قاعد» تغير المعنى وأصبحت الكلمة «مقاعد»، وأصبح للميم معنى من حيث إنها جلبت إلى الكلمة معنى جديداً. فإذا «استخرجنا» الميم من كلمة «مقاعد» تغير المعنى بسبب استخراجها من جمع مقعد إلى اسم الفاعل من قعد. وبهذا يمكن أن تدَّعي أن كل حرف من حروف الكلمة يحمل جرثومة من المعنى من جهتين، الأولى إيجابية، هي دلالة صوته على بيئته من الكلمة، والثانية سلبية، هي كونه مقابلاً استبدالياً لعدد من الحروف الأخرى، وهي الأهم(٧). أما الانحراف الصوتي فإنّ السمة الرئيسية التي تميزه من المستوى تحت اللغوي أو المستوى الأولي أو ما سميناه بدرجة الصفر الصوتية، هي التحريفية، أي انحرافها عن قوانين درجة الصفر الصوتية وخرقها لها.

ومن الممكن أن تعالج مشكلة العلاقة بين درجة الصفر الصوتية ولغة الانحراف الصوتي من خلال وجهتين للنظر: فالمنظّر للغة لانحراف الصوتي يطرح المشكلة تقريباً على

النحو التالي: هل يعدّ الشاعر مقيداً بدرجة الصفر الصوتية وقوانينها الثابتة؟ أو ربما تساءل: كيف تفرض درجة الصفر الصوتية نفسها في الشعر؟

ومن ناحية أخرى يريد المنظّر لدرجة الصفر الصوتية أن يعرف - قبل هذا - إلى أيّ حدٍّ يمكن أن تستخدم لغة الانحراف الصوتي مادة للتحقق من قوانين درجة الصفر الصوتية. وبعبارة أخرى تهتم نظرية الانحراف الصوتي في المقام الأول بوجوه الاختلاف بين درجة الصفر الصوتية والانحراف الصوتي، في حين تهتم درجة الصفر الصوتية - أساساً - بوجوه التشابه بينهما. وفي هذا السياق يمكن أن نسأل: ما العلاقة بين الامتداد الخاص بالانحراف الصوتي الشعري والمدى الذي تمتد إليه درجة الصفر الصوتية؟ وهل تعدّ لغة الانحراف الصوتي الشعري نوعاً خاصاً من لغة درجة الصفر الصوتية؟ أو أنها تكوين مستقل، ومن ثم تأخذ أشكالاً تطورية مختلفة.

إنّ الانحراف الصوتي الشعري لا يمكن أن يعدّ نوعاً خاصاً من لغة درجة الصفر الصوتية، ذلك لأن لغة الانحراف الصوتي الشعري لها مصطلحها، ولها أشكالها الصوتية وهناك انحرافات تقتبس مادتها الصوتية من شكل صوتي آخر مغاير لدرجة الصفر الصوتية، فتحدث لدى المتلقي تأثيراً صوتياً يدل غالباً على الإلحاح أو التناغم أو اللعب بشكل التعبير.

وكثيراً ما يميّز المتلقفون الخاصية الأدبية للنص اعتماداً على هذا البعد الصوتي، ومن أهم الأشكال الصوتية غير الوزنية تلك التي تؤدي إلى تكرار الأصوات أو الخطاب الشعري وينجم عنها ظواهر هامة نخص منها بالذكر ما يلي:

أ - الجناس بأنواعه المتعددة من تامة وناقصة وزائدة ولاحقة.

ويتمثل كما هو معروف في تكرار الملامح الصوتية ذاتها في كلمات وجمل مختلفة بدرجات متفاوتة في الكثافة. وغالباً ما يهدف ذلك إلى إحداث تأثير رمزي عن طريق الربط السببي بين المعنى والتعبير، حيث يصبح الصوت مثيراً للدلالة، كما نجد الجناس الناقص، ويتمثل في ظهور كلمات مختلفة، لكنها ذات نسيج صوتي متشابه بالرغم من معانيها المتغايرة، وهو شكل بلاغي أثير لدى الكتّاب الذين يتلاعبون بالتصورات، ويعتمدون على المهارات اللغوية. ويعثر الباحث في كتب البلاغة - خاصة في باب الأشكال البديعية - على كثير من أنماط التجانس الذي يؤدي إليه التلاعب المحبب بالعلاقة الصوتية بين الدوال. حيث ترد دوال متشابهة لأداء مدلولات متغايرة. فتكرر الكلمة بمعان غير ذلك من أنماط التجنيس(٨).

ومن أمثلة التكرار الصوتي (الجناس)

من قول أبي تمام:

يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصم
تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضب

وقوله:

فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

وقوله :

يا بعد غاية دمع العين إن بعدوا

وقوله:

ارامة كنت مألف كل ريم

وكقول كشاجم:

ذهب البكا ببصيرتي
حتى بكيت على البكاء

وقوله:

فأبيت أدني مهجتي من مهجتي
وأضم أحشائي إلى أحشائي

وقول السري الرفاء:

قد ظمئنا فكان ريقك ورداً
وثملنا فكان خدك وَرداً

وقوله:

أحاطت عيون العاشقين بخصره
فهنّ له دون النطاق نطاق

– **ومن التكرار الصوتي (السجع)** كقول ذي الرمة:

كحلاء في برج، صفراء في نعج
كأنها فضّة قد مسّها ذهب

وقول أبي تمام:

تجلّى به رشدي، وأثرت به يدي
وفاض به ثمدي، وأورى به زندي

وقول المتنبي:

قليل عائدي، سقم فؤادي
كثير حاسدي، صعب مرامي

وقول أبي فراس الحمداني:

معاذ الهوى، ما ذقت طارقة النوى
ولا خطرت منك الهموم ببال

وقوله:

إذا اطمأنّت وأين؟ أو هدات
عنّت لها ذكرةٌ تقلقلها

ومن السجع ما يسمى التشطير، وهو جعل كلّ من شطري البيت سجعة مخالفة لأختها، كقول أبي تمام:

تدبير معتصم، بالله منتقم
لله مرتغب، في الله مرتقب

– ومن التكرار الصوتي الترصيع الكامل، والناقص، والمكرر والمعلق. والترصيع هو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب.

كقول المتنبي:

اغالب في الشوق والشوق اغلب
وأعجب من ذا الهجر والوصل اعجب

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي
وللحب ما لم يبقَ مني وما بقي

لياليَّ بعد الظاعنين شكول
طوال الليل وليل العاشقين طويل

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

ب – **ومن الأشكال الصوتية (القلب).** ويتمثل في إعادة تنظيم العناصر التي تتكون منها الجملة مع الحفاظ على أصواتها وتغيير دلالاتها. وهو الذي يسمّى في البلاغة بالعكس أو التبديل ويمثلون له بقول المتنبي:

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله
ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وبقول القاضي الأرجاني:

مودتــه تـدوم لكــل هــول
وهــل كـلٌّ مودتــه تــدوم

وقد يسمى في بعض الأحيان الرجوع، وهو العود على الكلام السابق بالنقض – لنكتة – كما يقولون. ويمثلون له بقول الشاعر:

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها
إليك، وكلاً ليس منك قليل

ونحوه بقول أبي نواس:

قهوة تترك الصحيح سقيماً
وتعير السقيم ثوب الصحيح

وقوله:

كدنا على علمنا للشك نسأله
أراحنـا نـارنـا، أم نـارنـا الـراح

وقول سحيم عبد بني الحسحاس:

فكم قد شققنا من رداء منيّرٍ
ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شقّ برد شقّ بالبرد برقع
دواليك حتى كلّنا غير لابس

وقول المجنون:

ولو أنني إذ حان وقت حمامها
أُحَكّمُ في عمري لقاسمتها عمري
فحلّ بنا الفقدان في ساعة معاً
فمت ولا تدري، وماتت ولا أدري

وقول أبي العتاهية:

لو عقلنا إذا النهار يسوق (م)
الليل، والليل إذ يسوق النهارا

وقول البحتري:

ليس يُدرى أصنع إنسٍ لجنٍّ
سكنوه أم صنع جنٍّ لأنس؟

ويلاحظ أن شرط اعتبار هذا القلب من الأشكال الصوتية أن تعاد الكلمات بألفاظها مما يجعل القيم الصوتية وتكرارها هو الخاصية المميزة للتكوين اللغوي.

- ومن مظاهر التكرار الصوتي (لزوم ما لا يلزم) قصيدة كثير عزة التي منها:

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولت
وإني وتهيامي بعزّة بعدما
تخلّيت مما بيننا وتخلّت
لكالمرتجي ظلّ الغمامة كلما
تبوّأ منها للمقيل اضمحلّت

وكقول ابن الدمينة:

تعاللت كي أشجى وما بك علة
تريدين قتلي؟ قد ظفرت بذلك
أبيني أفي يمنى يديك جعلتني
فافرح أم صيّرتني في شمالك
لئن ساءني أن نلتني بمساءة
فقد سرّني أنّي خطرت ببالك

وكقول أبي العلاء المعري:

أم غداً من عرق نازل
ومهجةٍ مولعةٍ بارتقاء
ثوبيَ محتاج إلى غاسلٍ
وليت قلبي مثله في النقاء

وكقوله:

شجر أشجار علمت بها
شجراتٌ أثمرت ناسا
حملت بيضاً وأغربة
وأتت بالقوم أجناسا
كلهم أخفت جوانحه
مارداً في الصدر خناسا

وقوله:

حاطني خالقي فعشت ولولا
خوفه قلت ليته لم يحطني
جسدي خرقة تخاط إلى الأر
ض، فيا خائط العوالم خطني

جـ - الحزم الصوتية: وتتمثل في بث مجموعة من الأصوات المكورة في نسيج الخطاب لإثارة طاقتها الإيحائية الكامنة، وتفجير إمكاناتها الوافرة. ويتجسد ذلك على وجه الخصوص في الشعر، حيث تنحو اللغة إلى تجاوز طابعها الاعتباطي المتعسف في العلاقة بين الصوت والمعنى أو الدال والمدلول. وكثيراً ما نجد النقاد يتوقفون عند تحليل أثر خاص ناجم عن موسيقى الكلمات ذي طبيعة بصرية لونية، مما يعود إلى فكرة رمزية الأصوات الشهيرة. ومن الممكن لمتابعة الجهد التحليلي في رصد هذه العلاقات وتصنيفها أن يصل البحث إلى تحديد عمليات التداخل والتلازم بين الدوال والمدلولات، بما يؤدي إلى العثور على هياكل القيم الثقافية الكامنة والمولدة لحس التمازج بين الضوء والموسيقى في بنية اللغة الشعرية(٩). ومن ذلك ما يسميه العرب حكاية الصوت للمعنى؛ والمقصود أن يكون في جرس الصوت ما يذكر بالمقصود بالكلمة. وقد

ضربوا المثل لذلك بالتكرار الذي في إخراج نطق الراء في كلمة «خرير»، وأنه يذكر بخرير الماء، وبالاحتكاك والرخاوة في نطق الحاء، وأنه يذكر بفحيح الأفعى، كما أن رخاوة الفاء تذكر بحفيف الشجر؛ وكل من الراء والحاء والفاء تحمل في جرسها ما يوحي بمعنى الكلمة التي هي فيها. ومن ذلك أيضاً ما توحي به القيم الصوتية الخلفية والأمامية. ومع أن هذه الظاهرة ليست مطردة في أية لغة في هذا العالم وجدنا الرمزيين الفرنسيين يدعون إلى أن تحل هذه العلاقة الطبيعية بين الكلمة ومعناها محل العلاقة العرفية التي تسجلها المعاجم؛ وبهذا يجعلون الكلمة كالنغمة الموسيقية، توحي بجرسها بدلاً من أن تدل بمعناها الذي تعارف عليه المجتمع(١٠).

ومن الممكن أن نقترب من الطاقة الإيحائية الكامنة في الأصوات المكورة في نسيج الخطاب الشعري وإمكاناتها البعيدة المتعددة، إذا تأملنا ملياً قول ابن المعتز في وصف الثريا:

وقد لمعت حتى كأن بريقها
قوارير فيها زئبق يترجرج

وقول جران العود النميري:

لقد كان لي في ضرتين - عدمتني
وعمّا ألاقي منهما متزحزح
إذا ما انتصينا فانتزعت خمارها
بدا كاهلٌ نهدٌ وراس صمحمح

وقول البحتري في امرأة:

خلطت هجرة بوصل ففي الـ
أبعاد قرب وفي الوصال صدود

وقول تميم بن المعز في الكحل:

فقلت لها أكحلٌ وافتراق؟
كأنك لم يروّعك البعاد
فقالت: كي تحوله دموعي
فيغدو وهو في خدّي حداد

وقول العباس بن الأحنف:

للحبّ في قلبي أشجار
تنبتها للشوق أنهار
والعين قد أسعدني دمعها
تمدّه من كبدي نار
بواكفٍ يغرق إنسانها
سحابة بالماء مدرار

وقول المتنبي:

وما زلت طوداً لا تزول مناكبي
إلى أن بدت للضيم فيَّ زلازل

وقول أبي نواس في سمير:

متى يرم في سكره منطقاً
تقل به خطرة وسواس

وقول مالك الهمداني:

وقلتاً قَرْت فيه السحابة ماءها
بأنيابها والفارسي المشعشعا

وقول أبي تمام في الشيخوخة:

لمّا تفوقت الخطوب سوادها
ببياضها عبثت به فتفوّقا

وقول أبي فراس الحمداني:

إذا اطمأنت وأين؟ أو هدأت
عنّت لها ذكرةٌ تقلقلها

وقول البحتري في وصف الربيع:

ومن شجرٍ ردّ الربيع لباسه
عليه كما نشّرت ثوباً منمنما

د - الوحدات الإيقاعية (التفعيلات) فالانحراف أو التحول (الزحاف) الذي يصيب الوحدات الإيقاعية (التفعيلات) يحدث في الشعر أنواعاً من الإيقاعات المختلفة فوق الوزن العروضي الثابت، وله تأثير نفسي عميق، ونستطيع أن نمثل لذلك بقول مهيار الديلمي:

نشدتك يا بانة الأجرع
متى رفع الحيّ من (لعلع)
وهل مرّ قلبي في التابعين
أم خار ضعفاً فلم يتبع؟
وسرنا جميعاً وراء الحمول
ولكن رجعتُ ولم يرجع

فأنّتُه لك بين القلوب
إذا اشتبهت أنة الموجع
وشكوى تدل على سقمه
فإن أنتِ لم تبصري فاسمعي
وأبرحُ من فقده أنني
أظنُّ الأراكة عني تعي
رأى قلقي تحت أرواقه
فدل الخيالَ على مضجعي
أبغداد حُلتِ فما أنت لي
بدار مصيف ولا مربع
إلى كم يزخرَف لي جانباك
خداعاً ولو شئت لم أخدع
وما أنتِ إلا وميض السراب
على صفحة البلد البلقع
وما لي أقمحُ ملح المياه
إذا كنت أشرب من أدمعي؟!

فالوحدة الإيقاعية: علن (ب-) التي يحدثها مهيار في عروض البيت الأول والثاني والخامس والسادس والسابع والثامن. وفي جميع الوحدات الأخيرة (الضرب) تثير التأمل في تمثل أحلام مهيار ومخاوفه وآماله. وهي تعبر عن رغبة لا شعورية في إعادة الحياة إلى الربع. وليس تكرار هذه الوحدة الإيقاعية التي تأخذ صفة الإلحاح المستمر على عقل مهيار إلا تأكيداً على حضور الأحبة الدائم في دموع مهيار وأناته الموجعة.

إن ظاهر التشكيلات الإيقاعية يوحي أن مهياراً ينتقل من الوحدة (ب- -) إلى الوحدة (ب-) بإسقاط المقطع الطويل (-)، ولكن لكل ظاهر باطناً؛ ذلك أن الوحدة الإيقاعية الجديدة التي يحدثها مهيار عالم يتداخل فيه قلبه الضعيف وأناته الموجعة وشكواه المبرحة وقلقه الأبدي ودموعه التي يشربها وهذا السراب الخادع الذي يتراءى له.

هذه الصور متقاربة الدلالة يكمل بعضها بعضاً وتنتمي إلى نظام إيقاعي واحد. كلها تتعاون على خلق إحساس واحد. فالوحدات الإيقاعية يصنع أولها ثانيها، وثالثها رابعها.. وهكذا. تتغير صورها حقاً ولكن مبدأها لا يزال باقياً وجذوتها ما تزال مشتعلة. هذه الفكرة تغير مفهوم إسقاط المقطع الطويل (-) من الوحدة (التفعيلة) الأخيرة (الضرب). فإسقاط المقطع الطويل (-) لا يهدم الإيقاع. فالزمن الموسيقي للوحدة يمكن أن يظل ثابتاً. ووظيفة الوحدة الإيقاعية (ب-) في هذه الحال وظيفة إيجابية. فهي دعوة غامضة إلى تغيير النظر إلى الإيقاع أو دعوة إلى مبدأ استمرار الإيقاع من حيث هو نشاط وفاعلية.

أنَّةُ مهيار الموجعة، وإحساسه بالنفي الأبدي في خدمة الإيقاع لكي يستمر البكاء متجدد لا يجف، والإحساس بالفجيعة والخيبة مستمرلا يزول.

وكذلك الإيقاع لا يزول. الإيقاع زمن ذو طابع متناقض يقف مهيار أمامه عاجزاً قلقاً هارباً باكياً، لا يشرب إلا من دموعه، لكنه من جهة أخرى تشكيل خلاق، ومن الممكن أن يتصور ما فيه من طاقةوإبداع. وقد حرص مهيار على إبراز هذه الطاقة في أشكال متنوعة، ومن ثم بدا إسقاط المقطع الطويل (-) من الوحدة الإيقاعية الأخيرة جانباً جوهرياً من عملية تطور إبداعي. فهي تعبير عن استمرار القلق والبكاء والخيبة والضياع وإحالة الإحساس الدائم بها إلى رموز باقية. وما يبدو إذاً من إسقاط المقطع الطويل (-) في الوحدات الزمنية التي أشرنا إليها ضروري من أجل السيطرة على تيار الإحساس المتصل، وهو أدل الأشياء على أن مهياراً الشاعر يستطيع أن يتصور فكرة الإيقاع كرمز تزول فيها بعض المقاطع الإيقاعية من أجل الرموز الباقية أو المرامي البعيدة. ذلك أن الذي تومىء إليه فكرة إسقاط المقطع الطويل (-) الوحدة الإيقاعية، كل وحدة، سلسلة من

الإيقاعات المؤقتة، سلسلة من لحظات النفي الأبدي والقلق الأبدي، فكل وحدة تتشكل لكي تزول ولكي تنشأ من جديد. النفي والقلق يتجددان كل لحظة. وبهذا المعنى يقال عن الإيقاع: إنه متغير ودائم في آن، دائمي التغير، تغيري على الدوام(١١).

وبهذا الأفق نستطيع أن نتذوق الوحدات الإيقاعية التي يحدثها (الانحراف) في التشكيلات الشعرية الأخرى:

* كانحراف (ب- -) في الطويل وتحولها إلى (ب - ب) كما في قول الشاعر:

يحطمنا ريب الزمان كأننا
زجاج ولكن لا يعاد له سبك

* وانحراف (ب- ب ب-) في الوافر وتحولها إلى (ب- - -) كما في قول المتنبي:

فما حاولت في أرض مقاماً
ولا أزمعت عن أرض زوالاً
على قلق كأنّ الريح تحتي
أوجهها يميناً أو شمالا

* انحراف (-ب-) في المتدارك وتحولها إلى (- -) كما في قول الشاعر:

يا ليل الصب متى غده
أقيام الساعة موعده

* وانحراف (- -ب-) في البسيط وتحولها إلى (ب-ب-) كما في قول المتنبي:

أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرّهم وأتيناه على الهرم

* وانحراف (-ب-) في البسيط وتحولها إلى (ب ب-) كما في قول مسلم بن الوليد:

أَمُرُّ بالحجر القاسي فأغبطه
لأنّ قلبك عندي يشبه الحجرا

* وانحرافها إلى (- -) كما في قول الشريف الرضي:

يا ظبية البانِ ترعى في خمائله
ليهنك اليوم إن القلب مرعاك

* وانحراف (- -ب-) في الرجز وتحولها إلى (ب-ب-) أو إلى (-ب ب-) كما في قول الشريف الرضي:

يا قلب جدد كمدا
فموعد البين غدا
لم أر فرقاً بعدهم
بين الفراق والردى
أرعى الحمول ناظراً
وألزم القلب يدا

* وانحراف (ب ب- ب-) كما في الكامل وتحولها إلى (- - ب-) كما في قول ديك الجن الحمصي:

مقتي لمنزليَ الذي استحدثته
أما الذي ولى فليس بمنزلي

* أو انحرافها إلى (- -ب-) أو إلى (ب ب -ب - -) كما في قول أبي فراس الحمداني:

أبنتيي لا تحزني
كل الأنام إلى ذهاب
نوحي علي بحسرة
من خلف سترك والحجاب
قولي إذا ناديتني
وعييت عن رد الجواب
زين الشباب أبو فراس
لم يمتّع بالشباب

* أو انحرافها إلى (ب ب - -) كقول أبي تمام:

لا تسقني ماء الملام فإنني
صبٌ قد استعذبت ماء بكائي

وقول الشريف الرضي:

كم عبرة موّهتها بأناملي
وسترتها متجمّلاً بردائي

* أو انحرافها إلى (- - -) كما في قول الشريف الرضي:

آوي إلى برد الظلال كأنني
لتحرقي آوي إلى الرمضاء

وقول ديك الجن الحمصي:

فوحقّ نعليها وما وطيء الحصى

شيء أعزّ إليّ من نعليها

* أو انحرافها إلى (– –) بحذف النواة (ب–) كما في قول أبي نواس:

إن كنتما لا تشربان معي

خوف العقاب شربتها وحدي

وقول الشريف الرضي:

وتلفتت عيني فمذ خفيت

عني الطلول تلفّت القلب

وقل مثل ذلك في الانحراف الذي يصيب الوحدات الإيقاعية التي تبنى منها تشكلات الشعر العربي كلها.

هـ – ولأصوات المد واللين قيمة موسيقية ولحنية، تلاحظ في تعاقبها أو تقابلها أو تكرارها، أو تنشأ من العلاقات (الهارمونية) بينها، وقد لاحظ لانس أنّ ثمة توازياً بين النغمات الموازية لحروف المد وبين نغمات معينة في السلم الموسيقي، وأن تتابع حروف معينة من حروف المد يمكن أن يؤلف لحناً، يتفق مع الديوان الكبير أو الديوان الصغير المعروفين في الموسيقى. وهذه العلاقات بين القيم الموسيقية بحروف المد تحدث تأثيراً نفسياً شبيهاً بالتأثير الذي يحدثه لحن موسيقي. ويصف لانس هذا التأثير بأنه نوع من الشوق. ويمكننا فهم ذلك إذا تذكرنا ما قلناه عن العلاقة بين الميلودية والهارمونية. إن النغمة الجديدة متضمنة في النغمة القديمة كواحدة من النغمات الثانوية المتفرعة عن النغمة الأساسية. فنحن نتوقع ورود النغمة التالية ونستريح إلى ذلك كأمر طبيعي، ولكننا لا نكاد نسمع النغمة الثانية حتى نشعر بما يشبه الحنين إلى عودة النغمة الأولى. بيد أن الملحن قد لا يشبع هذا الحنين على الفور، بل يأتينا بنغمة متوسطة ليثير في نفوسنا إحساساً جديداً بالترقب. وهكذا يستطيع الملحن، باستخدام أساليب لا تحصى في صياغة اللحن، أن يثير في نفوسنا ما يشاء من ألوان الانفعال.

واستخدام الشاعر لأصوات اللين يمكن أن يثير في نفوسنا مثل هذه الانفعالات، وإن كان الأمر في الشعر أخفى منه في الموسيقى لأسباب كثيرة، في مقدمتها أن اهتمامنا منصرف أولاً إلى المعنى، وأننا نحس النغم المميز لحرف اللين، ولكننا لا نشعر بوجوده المستقل لتعودنا سماعه ممتزجاً بسائر النغمات المؤتلفة، التي تجمع بينها علاقة هارمونية كالعلاقات التي تجمع بين نظيرتها في الموسيقى(١٢).

والحق أننا نستطيع أن نفترض مطمئنين بناء على الدور الهام الذي تلعبه حروف المد في الشعر عامة أن الشاعر يحسّ بالعلاقات الهارمونية بين هذه الحروف ويستغلها في شعره، ويمكننا أن نلاحظ عدة ملاحظات حول موسيقى حروف المد واللين في الشعر العربي.

أولى هذه الملاحظات أن حروف اللين في اللغة العربية قليلة العدد، فهي لا تتجاوز أربعة إذا اعتبرنا الألف في حقيقة أمرها عبارة عن صوتين: صوت مرقق يميل إلى الكسر وصوت مفخم يميل إلى الضم. وبناء على ذلك فإن الشاعر العربي يتصرف في نغمات محدودة، ولا بد له إذا أراد استغلال التأثير اللحني لأصوات المد من أن يعتمد اعتماداً كبيراً على حسن التأليف، ويساعده على ذلك أمران: الأول التفرقة الواضحة في اللغة العربية بين حروف المد والحركات. فمع أن اللغويين العرب – قدماءهم ومحدثيهم – يعدّون الفتحة والضمة والكسرة هي الأصوات اللينة الممدودة نفسها: الألف والواو والياء، مع فرق في الكمية فحسب، فإن هذا الفرق نفسه لا يعدّ هين القيمة في صياغة اللحن، لأن طابع اللحن – كما يقول الموسيقيون – يتأثر تأثراً محسوساً بتغيير إيقاعه، ويعني بالإيقاع هنا:

العلاقات الزمنية بين أجزائه، والأمر الثاني هو أن النبر في اللغة العربية - كما نرجح اعتماداً على الأذن وحدها في غيبة القياس الصوتي الدقيق - غير شديد البروز، ومن ثم فإن كل حرف من حروف اللين تظهر له نغمة واضحة في النطق أو الإنشاد.

والملاحظة الثانية أن الفتحة وأختها الألف هما أكثر أصوات اللين شيوعاً في اللغة العربية. وتأتي بعدهما الكسرة فالضمة، ومع ذلك فإن الشعراء يميلون في الروي إلى الكسرة والضمة أكثر من الفتحة. ومرد ذلك إلى القيمة الجمالية لكل صوت من هذه الأصوات. وهذه القيمة الجمالية تتحدد بأشياء كثيرة، منها النغمة المميزة لكل صوت من هذه الأصوات، وغنى الصوت بالنغمات الثانوية، وهو ما يسميه الموسيقيون Timber، والإحساس الحركي المصاحب للنطق بالصوت، وليس في مقدورنا الآن أن نستدل بشيء من هذه العوامل سوى العامل الأخير، ومنه يبدو أن الألف صوت لا لون له، فقد يكون الشعور بذلك هو سبب قلة الاعتماد عليها في القافية، وإن كثر ورودها في الشعر.

الملاحظة الثالثة الأخيرة التزام صوتين لينين، لا صوتاً واحداً، في أكثر القوافي العربية. ويبدو لنا من هذا أن النظام الهارموني للشعر العربي قد اعتمد على التكرار أو التقابل، حين أعوزه التنوع. تشعر بهذا التكرار شعوراً واضحاً في مثل قصيدة المتنبي:

أرى ذلك القرب صار ازوراراً

وصار طويل السلام اختصارا

وفي مثل قصيدته:

أيدري الربع أيَّ دم أراقا

وأي قلوب هذا الركب شاقا

وفي مثل قصيدته:

بقائي شاء ليس هم ارتحالا

وحسن الصبر زموا لا الجمالا

كما تشعر بالتقابل في مثل قصيدته:

منىً كنَّ لي أن البياض خضاب

فيخفى بتبييض القرون شباب

وفي مثل قصيدته:

لياليَّ بعض الظاعنين شكول

طوال وليل العاشقين طويل

وفي مثل قصيدته:

ما لنا كلنا جوٍ يا رسول

أنا أشكو وقلبك المتبول

ومن هذه الملاحظات الثلاث يبدو لنا أن النظام الهارموني للشعر العربي تغلب عليه البساطة، ويعتمد إما على التكرار أو على التقابل الحادّ(١٣). ولعل هذه الصفة تفسر لنا جانباً من تأثيره الذي يشبه تأثير المنوم المغناطيسي. وكأنما تعمد الشاعر العربي أن يدفع هذه الصفة إلى أقصى مداها متأثراً بعامل (النقاء) في الفن، ومستفيداً من سعة الاشتقاق في اللغة العربية، فالتزم قافية واحدة في القصيدة كلها، على أنه حين اتجه إلى تنويع القافية في الموشحات والأزجال متأثراً بالعامل المضاد وهو «التنويع» كان أقرب إلى الثراء الفني. ذلك أنه إذا صح ما قلناه من أن تأثير اللحن يرجع إلى الشعور بالشوق لعودة المفتاح، فإن استخدام مفتاحين للحن الواحد يضاعف هذا الشوق. فحين نسمع مثلاً هذين البيتين الأولين في مطلع الموشح المشهور للسان الدين بن الخطيب:

جادك الغيث إذا الغيث همى

يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلا حُلُماً

في الكرى أو خلسة المختلس

فإن ألف المد في «همى» تتركنا مترقبين لعودتها في نهاية الشطر التالي، فإذا أخلفت قافية هذا الشطر ظنَّنا وجدنا لذلك ما يشبه القلق، ثم تأتي قافية الشطر الأول من البيت الثاني موافقة لنظيرتها في البيت الأول فتلتذ

لهذه الموافقة، ولكن قافية الشطر الثاني من البيت الأول تظل معلقة حتى تعود إلينا بعد القافية الأولى(١٤).

بهذا الأفق نستطيع أن نقول: إن أصوات (المد واللين) عنصر هام في التأليف اللحني والموسيقي، وبهذا الأفق نستطيع أن نقول: إنّ لأصوات المد واللين جانباً شعورياً لا نستطيع أن نهمله وإن كان غامضاً، وكل اتجاه يرمي إلى إغفال هذا المنحى ينبغي ألاّ يعدّ بسهولة جزءاً من حركة المعنى ونشاط الشعر، ذلك أن المكون الصوتي لا ينفصل بحال عن الإمكانات المتعددة والتقاطعات المستمرة التي ينطوي عليها السياق. وبعبارة ثانية: إن أصوات المد واللين لا يمكن أن تدرك منفصلة عن حدة المعنى وقوته ونشاط السياق وكثافته وتعقيده. فأصوات المد في هذه الأبيات من قول المتنبي:

وما شرقي بالماء إلا تذكُراً
لماءٍ به أهل الحبيب نزول
يحرِّمه لمع الأسنَّة فوقه
فليس لظمآن إليه وصول
أما في النجوم السائرات وغيرها
لعيني على ضوء الصباح دليل
ألم يرَ هذا الليل عينك رؤيتي
فتظهر فيه رقّة ونحول

تعدل من البنية الإيقاعية الأخيرة من كل بيت (ب- - -) لتحدث وحدة إيقاعية جديدة (ب- -) لا تنفصل عن حزن المتنبي وهمومه البعيدة وآماله النائية.

وفي تردد هذه الوحدة الإيقاعية (ب- ×\= -) كذلك جانب شعوري لا نستطيع أن نتجاهله هو أن المتنبي كان يحاول أن يرتد إلى أعماقه، وأن يستشعر على الدوام القرب من هذا المجهول البعيد الذي يتطلع إليه باستمرار ويشير إلى تكرر محاولة الاتصال به، ويومىء - من وجه ما - إلى كل ما أهمّ المتنبي وأقلقه وأحزنه، وكأن هذا التكرار يصور قلق الشاعر المفرط، كما يصور أيضاً دعوته الملحة لهذا القلق الصديق بالبقاء فلا يزول(١٥).

وفي ضوء هذا التحليل نستطيع أن نطمئن إلى القول بأن لغة الانحراف الصوتي الشعري ليس نوعاً من لغة درجة الصفر الصوتية، وإن كان هذا لا يعني إنكار الارتباط الوثيق بينهما، هذا الارتباط الذي يتمثل في حقيقة أن لغة درجة الصفر الصوتية هي الخلفية التي ينعكس عليها التحريف الجمالي المتعمد للمكونات الصوتية للعمل، أو بعبارة أخرى، الانتهاك المتعمد لقوانين درجة الصفر الصوتية.

إنّ انتهاك قوانين درجة الصفر الصوتية - الانتهاك المنظم - هو الذي يجعل استخدام التحريف الصوتي الشعري ممكناً، وبدون هذا الإمكان لن يكون الشعر. وكلما كان قانون درجة الصفر الصوتية أكثر ثباتاً في نصّ ما كان انتهاكه أكثر تنوعاً، ومن ثم كثرت إمكانات الانحراف الشعري الصوتي في ذلك النص. ومن ناحية أخرى كلما قلّ الوعي لقوانين درجة الصفر الصوتية قلّت إمكانات الانتهاك، ومن ثم تقل إمكانات الانحراف الشعري. وهكذا فإنه في التجربة الشعرية - التي كانت على النقيض من تجربة أبي تمام - عندما كانت درجة الوعي بقوانين درجة الصفر الصوتية ضعيفة كانت التعبيرات الشعرية جزءاً من هذه الدرجة وقوانينها الثابتة المستقرة المعلومة. ومثال لهذا حالة البحتري - وهو شاعر يمثل عمود الشعر العربي، تعد تعبيراته الشعرية فقيرة، وعلى العكس من ذلك يظهر التحليل الجمالي لقصائد أبي تمام - وهو شاعر يمثل الحداثة اللغوية الشعرية بأبهى صورها - أن الصولي - وهو خير من أسس لحداثة النقدية - كان على حق في تقييم شعر أبي تمام. ذلك أن التحريف الذي وصل في تجربة أبي تمام الشعرية إلى ذروته مردّه

إلى وعي أبي تمام العميق بدرجة الصفر الصوتية وقوانينها الثابتة المستقرة.

ونحن نورد هذا الخلاف بتوضيح العبارة التي تقول: عندما تكون درجة الصفر الصوتية ضعيفة، قلّ الانتهاك والتحريف، ولهذا فاللغة في ظل درجة صفر صوتية تقدّم للشاعر وسائل أقل.

هذه العلاقة بين درجة الصفر الصوتية والتحريف الصوتي الشعري لها جانب آخر يتعلق بالوظيفة المختلفة لكل منهما. وهذا هو لبّ المشكلة. فوظيفة الانحراف الشعري الصوتي تكمن في الحد الأقصى لما يسمى بـ (أمامية) القول. والأمامية Foregrounding عكس (الآلية) Automatization أي لا آلية Deautomatization الفعل، فكلما كان الفعل آلياً قلّ الوعي في تنفيذه. وكلما كان أمامياً زاد الوعي تماماً. ويمكن القول بموضوعية: إنّ الآلية تخطط للواقع في حين تنتهك الأمامية هذا التخطيط(١٦).

إن درجة الصفر الصوتية في أنقى أشكالها تتجنب الأمامية وتسعى دائماً إلى التوصيل، وفي لغة الانحراف الصوتي الشعري تحقق الأمامية حداً أقصى من التكثيف الذي يدفع بالتوصيل إلى الوراء على أساس من وظيفتها الجمالية أو على أساس أن هذه اللغة التحريفية هي الهدف من التعبير، وأنها مستخدمة لذاتها فقط ومن أجل وضع التعبير والقول نفسه في الأمام. وعلى هذا يكون السؤال - إذن - عن كيفية تحقق هذا الحد الأقصى للأمامية في الانحراف الصوتي الشعري. قد تنشأ فكرة ترى أن هذا الحد الأقصى للأمامية يتحقق من خلال التأثير الكمي الصوتي. أي أن يكون أكبر عدد من مكونات النظام الصوتي أمامياً. وربما تكون التشكيلات الصوتية كلها أمامية. غير أنّ هذه الفكرة ليست صواباً تماماً.وذلك أنّ من المحال أن تتحقق الأمامية التامة في التشكيلات الصوتية جميعها. ومن القريب الذي لا يجادل في قربه أن أمامية أحد المكونات الصوتية لابد أن يصحبها بالضرورة آلية أحد المكونات الصوتية الأخرى أو أكثر. وبالإضافة إلى استحالة أمامية كل المكونات الصوتية فإنه يمكن الإشارة أيضاً إلى أنه لا يجوز التفكير في إمكان أن تتزامن المكونات الصوتية لنص شعري ما. وذلك لأن أمامية مكون صوتي ما تتضمن ما يجعله في الأمام. فوجود مكون صوتي في أمامية نص شعري يعني أنه يشغل هذه المكانة بالمقارنة مع مكون صوتي أو مكونات صوتية أخرى تبقى في الخلفية، ومن ثم قد تُظهر الأمامية العامة المتزامنة كل المكونات الصوتية، ولهذا تتحول إلى آلية جديدة.

ينبغي إذن أن نتلمس الوسائل التي تحقق به التحريفية الصوتية الحد الأقصى من الأمامية في مكان آخر غير كمية العناصر الصوتية الأمامية. وهذه الوسائل تكمن في صفتي تماسك أمامية المكونات الصوتية، ونظاميتها حيث يؤدي تداخل المكونات الصوتية وعلاقات بعضها ببعض، وبناء بعضها على بعض، من جهة وتفاعلها مع المكونات اللغوية والدلالية، وتسرّب دلالاتها فيما بينها من جهة ثانية الأمامية، إلى أمامية المعنى، ومن ثم يصبح العنصر الصوتي الأمامي هو العنصر المهيمن. حيث تقيم كل المكونات الصوتية الأخرى سواء أكانت أمامية أم غير أمامية، مثلها مثل علاقاتها المتداخلة من وجهة نظر هذا العنصر الصوتي المهيمن. فالعنصر الصوتي المهيمن هو ذلك العنصر الأساس في العنصر الشعري. إذ هو الذي يوجه الحركة، ويحدد اتجاه العلاقات لكل المكونات الصوتية الأخرى، ومن ثم تظهر حتى في القول الذي يهدف إلى التوصيل أيضاً العلاقة الكامنة بين

التلوين الصوتي والمعنى، أو علاقة الكلمة بوصفها وحدة ذات معنى بالتركيب الصوتي للنص. ويمكن القول: إن كل عنصر صوتي يكون مرتبطاً بشكل مباشر أو غير مباشر عن طريق هذه العلاقات المتداخلة المتعددة بالعناصر الصوتية الأخرى على نحو ما. وتكون هذه العلاقات في القول الذي يهدف إلى التوصيل في جانبها الأكبر مجرد إمكان، لأن الانتباه لا يُسترعى لوجودها أو لعلاقاتها المتبادلة. وعلى أي الأحوال فإن التنظيم الداخلي للعلاقات الصوتية يختلف وفقاً لشروط العنصر الصوتي المهيمن، وبتحديد أكثر: في بعض الأحيان يكون التلوين الصوتي محكوماً بالمعنى وأحياناً يكون بناء المعنى محدداً بالتلوين الصوتي، وفي أحيان أخرى، ربما تكون علاقة عنصر صوتي ما بالنص الشعري في الأمام. ومن ثم تكون مرة أخرى علاقته بالبنية الصوتية للنص. أمّا العلاقات الصوتية الممكنة، وأيّ منها سيكون أمامياً، وأي منها سيبقى آليّاً، وما اتجاه الأمامية المتوقع، فكل هذا يتوقف على العنصر الصوتي المهيمن.

من هنا يخلق العنصر المهيمن وحدة النص الشعري. وهي بطبيعة الحال وحدة من نوعه هو، ذات طبيعة يطلق عليها في علم الجمال عادة «الوحدة في التنوع» فهي وحدة ديناميـة، إذ إننا ندرك في الوقت نفسه الانسجام وعدم الانسجام، والتقارب والاختلاف، والاتجاه نحو العنصر الصوتي المهيمن هو الذي يخلق هذا التقارب، أمّا الاختلاف فإنه يتأتى من مقاومة الخلفية الثابتة للعناصر الصوتية غير الأمامية ضد هذا الاتجاه. ومن هنا يتضح أن إمكان تحطيم قوانين الخلفية - أي قوانين درجة الصفر الصوتية - أمر لازم للشعر، وعلى هذا ينبغي ألاّ يعدّ الانحراف الصوتي الشعري من قبيل الأخطاء لأن ذلك يعني رفض الشعر.

الحواشي

١ - حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣) ص ٧٨.
٢ - أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ط٣ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦١) ص ١٦٣.
٣ - مختار عمر، أحمد، دراسة الصوت اللغوي (الكويت: جامعة الكويت، عالم الكتب) ص ١٨٧.
٤ - عياد، شكري، موسيقى الشعر العربي، مشروع دراسة علمية (القاهرة: دار المعرفة) ص ٣٤ - ٣٦.
٥ - أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص ١٧١ - ١٧٢.
٦ - مجلة فصول، ع ١، مج ٤، ١٩٨٣، ص ١١٨.
٧ - حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٧٥ - ٧٧.
٨ - فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ع ١٤٦ (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٢) ص ٢١١.
٩ - فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢١٢.
١٠ - مجلة فصول، ع ١، مج ٤، ١٩٨٣، ص ١٢٠.
١١ - سلوم، تامر، أسرار الإيقاع في الشعر العربي (دمشق: دار المرساة، ١٩٩٤) ص ٥١ - ٥٣.
١٢ - عياد، شكري، موسيقى الشعر العربي، ص ١٠٧ وما بعدها.
١٣ - إذا جاز لنا - في غيبة الأبحاث التجريبية عن الذبذبات المميزة لأصوات اللين في العربية - أن نقارن هذه الأصوات بالأصوات المقاربة لها في اللغة الإنكليزية، والتي أورد لانس ذبذباتها المميزة، فإننا نلاحظ أولاً، تقارباً شديداً بين الذبذبات المميزة لصوت اللين في كل من meet,gloom وهما يشبهان واو المد وياء المد في العربية، فالذبذبة المميزة لأولهما عند لانس هي ٣٢٦، والذبذبة المميزة للثاني ٣٠٨، وهذا يفسر لنا- من ناحية - إمكان تقارض الواو والياء في لردف، ويشير من ناحية أخرى إلى نوع من التكرار، أما الألف فلعلها قريبة من حرف اللين في مثل، وذبذبته عند لانس هي ٨٠٠، أي أنها تقرب من ضعف ذبذبة الواو أو الياء، وهذا معناه أن الألف تحتل أقصى مكان في الطبقة أو الأوكتاف إذا كانت لواو أو الياء تحتل أدنى مكان فيه. وهذا هو التقابل الحاد.
١٤ - عياد، شكري، موسيقى الشعر العربي، ص ١٠٨ وما بعدها.
١٥ - سلوم، تامر، أسرار الإيقاع في الشعر العربي، ص ٢٦٤.
١٦ - مجلة فصول، ع ١، مج ٥، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٤٢.

وصف ظاهرتين في حديثين لفائدة مهاجري شرق الأندلس

الدكتور أحمد المصباحي
الدار البيضاء

● إن حالة الضعف الشاملة التي عانت منها الأندلس في العقد الثاني وما تلاه من القرن السابع الهجري هي التي أدى بها في نهاية المطاف إلى أن يفرض عليها المسيحيون سيطرتهم التامة إن عاجلاً أو آجلاً.

وبسبب تلك الحالة فقدت شبه الجزيرة جلّ مقومات الدولة القوية التي تمكنها من صد العدوان الخارجي، والحفاظ على التوازن العام للبلاد.

وقد برزت البوادر الأولى لذلك التدهور لدى الحكام الموحدين الذين كانوا يبسطون سيطرتهم على منطقة الغرب الإسلامي كله.

وبعد ذلك تسرب إلى بعض الشخصيات الأندلسية التي رفعت شعار الانفصال عن الموحدين، فسرت حمى الزعامات السياسية عند الأندلسيين الذين اقتسموا فيما بينهم ما انتزعوه من الولاة الموحدين فسقطت الأندلس ومن جديد في عصر طائفي ثالث يقوده أمراء ضعاف، لا قدرة لهم على صيانة حوزة تراب وطنهم من المتربصين به.

في ظل هذا الاضطراب الباعث على اليأس في أغلب الحالات أخذ كل مواطن أندلسي يبحث لنفسه عن مخرج ما. كل حسب موقعه الاجتماعي أو انطلاقاً من قناعته الفكرية، ومن بين تلك الحلول التي التجأت إليها نسبة كبيرة من الأندلسيين هي الهجرة خارج حدود الوطن بحثاً عن الأمن والاستقرار.

في هذا الإطار احتفظ لنا مخطوط «زواهر الفكر وجواهر الفقر»(١) لابن المرابط بظهيرين فريدين، يساعدان الباحث في تسليط الأضواء على بعض الجوانب الغامضة في التاريخ المشترك بين العدوتين خلال القرن السابع الهجري.

إنهما ظهيران صدرا عن الخليفة الرشيد الموحدي (- ٦٤٠ هـ)(٢). الأول عام والثاني خاص، تتعهد فيهما الدولة الموحدية بتوفير جميع شروط الحياة الملائمة للمهاجرين الأندلسيين الوافدين إلى المغرب.

وصف الظهير الأول(٣)

يذكر هذا الظهير أن صاحب سبتة أبا الحسن علي بن خلاص السبتي (٤) التمس من الخليفة الموحدي إصدار ظهير لفائدة مواطني شرق الأندلس، يسمح لهم بالاستقرار في مدينة الرباط. وقد صدر في الحادي والعشرين من شعبان سنة سبع وثلاثين وستمائة.
والظهير ينص على أن الذين سيستفيدون منه هم سكان مدن بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ومن جرى من سائر بلاد الشرق مجراهم.
ومحرر هذا الظهير هو الكاتب المتفنن أبو المطرف أحمد بن عبدالله بن عميرة المخزومي(٥).

يعطي الظهير لهؤلاء المهاجرين امتيازات متعددة مادية ومعنوية، فيها حرث الأرض وتمليكها لهم وأولادهم وأولاد أولادهم غير ملزمين بأداء أية ضريبة إلا تلك التي أوجبها الشرع على المسلمين كافة «حتى يزداد القوي منهم قوة، وحتى ينال الضعيف منهم يساراً» ترعى كرامتهم فلا يصيبهم مكروه. وأن يكرموا غاية الإكرام ليتم الانسجام والاندماج بينهم وبين إخوانهم المغاربة.. إلى غير ذلك من الحقوق التي ضمنت لهؤلاء النازحين، وهيأت لهم مناخاً اجتماعياً ينسيهم فقدانهم لوطنهم.

وصف الظهير الثاني

انفرد ابن المرابط دون غيره بتدوين هذا الظهير في مؤلفه «زواهر الفكر». وقد صدر لمصلحة أبي الحسن علي بن غالب، وهو شخصية أندلسية حليت بأوصاف مثل الشيخ والقائد. لكننا لا نعرف عنه إلا القليل. ومما لا شك فيه أن ابن غالب هذا كان له وزن اجتماعي أو سياسي أو غيرهما، مما دفع

الخليفة الرشيد أن يصدر في حقه ظهيراً يكفل له معاشاً نقداً وعيناً على امتداد حياته وأينما حلّ وارتحل من بلاد الموحدين. وقد حرر سنة سبع وثلاثين وستمائة من لدن «أبي المطرف» كذلك.

إن أول ملاحظة تثير الانتباه هي أن محرر الظهيرين معاً هو «أبو المطرف». ومن هنا فنحن لا نستبعد أن يكون لأبي المطرف يد خفيّة للعمل من أجل استصدار الظهيرين المذكورين وذلك استئناساً بمعطيين موضوعيين، أولهما أن ابن عميرة من جزيرة شقر بالذات، وهي من بين مدن شرق الأندلس التي استفادت من الظهير الأول، وثانيهما أن «أبا المطرف» عرف عنه حدبه الشديد على أبناء وطنه، وسعيه الدائب للوقوف بجانبهم كلما سمحت له الظروف بذلك.

اتبع أبو المطرف وهو كاتب الخليفة الرشيد في فترة معينة أسلوب الكتابة الديوانية المتبع لدى الخلافة الموحدية، الذي نجد نماذجه فيما تبقى لدينا من رسائل موحدية، سواء تلك التي نعثر عليها في صبح الأعشى للقلقشندي أم فيما جمعه ليفي بروفنسال.

إن تاريخ صدور الظهيرين معاً يقتربان شيئاً ما من حادث مروع حلّ بالأندلس، وكان له الأثر العميق في نفوس كثير من الأدباء الأندلسيين، وعلى رأسهم، أبو المطرف نفسه، ونعني به مأساة الاستيلاء على أم مدائن شرق الأندلس بلنسية(٦).. ولا شك أن حالة الضياع والتشرد التي حلّت بمنطقة شرق الأندلس كانت وراء تدفق جموع المهاجرين الأندلسيين صوب بر العدوة واكتظاظ مدينة سبتة بهم، حتى ضاقت رحابها وغلت معيشتها وانتشرت بها المجاعة، الأمر الذي دفع بصاحبها لكي يطلب من الخليفة الموحدي السماح لهؤلاء النازحين الاستقرار بمدينة الرباط.

وأخيراً وليس آخراً فإن الفكرة المهمة التي ألهمنا إياها الظهيران هي روح التسامح التي طبعت سياسة الحكام المغاربة إزاء الأندلسيين الذين كانوا على العموم على العكس من ذلك يكنون حقداً دفيناً للمغاربة الذين يعدّ فضلهم على شبه الجزيرة كبيراً وكبيراً جداً، والشواهد التاريخية على هذه العداوة كثيرة، وأقربها إلينا تلك التي لحقت الولاة الموحدين ومن صار في ركابهم في الثلث الثاني في القرن السابع الهجري نفسه، وذلك حينما انفرط عقد الخلافة الموحدية، وصار غنيمة اقتسمها أكثر من واحد، في الوقت الذي أصبح فيه همّ الخلفاء الموحدين هو إحكام قبضتهم على حاضرة الخلافة الموحدية مراكش والحواضر التابعة لها، التي غدت نهباً للمتنافسين على السلطة وما أكثرهم.

ففي الوقت الذي غادر فيه المأمون (- ٦٣٠ هـ) وهو أبو الخليفة الرشيد الأندلس تاركاً هذه في يد ولاة مجردين من قوة تحميهم وتحمي من وضعت مصائرهم على عاتقهم «قرع - ابن هود - الطبول ونشر البنود وقويت شوكته وتألقت شرزمته» ثم بعد ذلك وجدها الأندلسيون فرصة مناسبة لصب حقدهم على كل من صادفوه في طريقهم من المغاربة، ففتكوا بهم «في كل بلد منها - أي الأندلس - وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم» كما يقول ابن عذارى(٧) وغيره ممن أرخوا لهذه المحنة.

الظهير الاول

هذا ظهير كريم أمر به أمير المؤمنين [...] أيدهم الله تعالى بنصره وأمدهم بمعونته ويسره للشيخ القائد الأكرم أبي بكر بن الشيخ المشرف أبي الحسن بن غالب - أدام الله تعالى كرامتهم بتقواه - يحمل به من الكرامة على أوضح سبيل ويوفي من البرة

والرعاية كل حظ جزيل وقصد جميل، ويرتب له أربعون ديناراً في كل شهر مع مدين من القمح وأربعة أمداء من الشعير وكيهم مائتي دينار واثنين في كل سنة. وكل ذلك مطرد له حيثما حلّ من بلاد الموحدين - أعزهم الله تعالى - بياسر فيه من غير توقف ويتعرف الرأي الجميل منه أحسن تعرف إحساناً منه - أعلى الله تعالى أمره وأوزع شكره بوأه ظله وأفرغ عليه سجْله.

فمن وقف عليه فليعمل بمضمنه ولا يعدل عن واضح سننه - إن شاء الله تعالى - وهو المستعان لارب سواه.

كتب في العشر الأول لجمادى الآخرة عام سبعة وثلاثين وستمائة.

الظهير الثاني

ومما كتبه عن أمير المؤمنين الرشيد بن أمير المؤمنين للمستوطنين من أهل شرق الأندلس رباط الفتح ما نصه: هذا ظهير كريم أمره به أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين - أيدهم الله تعالى بنصره وأمدهم بمعونته ويسره - للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبية ومن جرى من سائر بلاد الشرق مجراهم وعراه من غير الأيام ما عراهم حين أنهى ذو الوزارتين الشيخ الأجل الأكرم الأعز الأفضل أبو علي ابن الشيخ الأجل الأكرم أبي جعفر بن حلاص أدام الله تعالى أثرته وكرامته - ما أصابهم من الجلاء ودهاهم من أمر الإعلاء، وسعى لهم من يقضي فيهم بالجوار، ويلتمس لهم مكاناً للقرار ومنزلاً لإلقاء عصا التسيار. وعند ذلك أذن لهم - أعلى الله تعالى إذنه وجدد سعده وعينه - في النقلة إلى رباط الفتح - عمره الله تعالى بقضيضهم وقضهم - وأن يتخذوا مساكنه وأرضه ويعمروا منه بلداً يقيل منهم أولى من قبل، ويحملهم إن شاء الله تعالى - وخير البلاد ما حمل، فإنه ساح للتاجر والفلاح وملتقى الحادي والملاح ومرافق من بره وبحره موجودة في فصول السنة مؤذنة لقاطنه بالعيشة الهنية والحال الحسنة، ولهم أفضل ما عهده رعايا هذا الأمير العزيز - أدامه الله تعالى - من التوسعة على قويهم كي يزداد قوة والرفق بضعيفهم حتى ينال يساراً وثروة، وأن يتوسعوا في الحرث. ففي أرضه هناك متسع ويتبسطوا في كل ما لهم منه معاش وبه منتفع، ويغرسوا الكروم وأنواع الشجر على عاداتهم ببلادهم، ويتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم وكل ما يعمرون من الضياع ويقتنون من الأصول والرباح، فله حكم التسويغ على الإطلاق والدوام، لا يلزمون فيه شيئاً من وجوه الإلزام، ولا يطلبون بغير حقوق الشرع التي جعلها الله تعالى في أموال أهل الإسلام وأقوالهم في مقاديرها مصدقة، وأمانيهم كلها لهم وللاحقين بهم محققة. والولاة والعمال - حفظهم الله تعالى - مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى يلمّ بجانب من جوانبهم أو يعوق عن مأرب صغير أو كبير من مأربهم، وأن يكرموا غاية الإكرام نبهاءهم ويولوهم من حسن الجوار ما ينسيهم أوطانهم حتى تدفع عنهم كل شبهة من شبه الحيف، ويجمع لهم من الرعاية لحرمة البلدي العناية بحق الضيف إحساناً منه - أعلى الله تعالى أمره وأوزع شكره - يتسحب على جماعتهم وأفذاذهم، ويحملهم على موجب اعتلاقهم بهذا الأمر العلي - أدامه الله تعالى - وملاذهم، فمن وقف عليه من الطلبة والعمال - أكرمهم الله تعالى - فليعمل بحسبه، ولا يعدل عن كريم مذهبه - إن شاء الله تعالى. وهو تعالى المستعان لا رب سواه.

كتبه في الحادي والعشرين لشعبان المكرم من سنة سبع وثلاثين وستمائة.

الحواشي

١ - ابن المرابط (- ٦٦٣ هـ) زواهر الفكر وجواهر الفقر : مخطوط أندلسي اشتمل على نصوص شعرية ونثرية نادرة لأدباء منطقة شرق الأندلس خلال القرن السابع الهجري و قد قمت بتحقيقه وسيصدر قريباً إن شاء الله تعالى في كتاب.

٢ - أبو محمد عبد الواحد بن إدريس الموحدي الرشيد (- ٦٤٠ هـ) بويع بالخلافة بعد موت أبيه أبي العلاء سنة ٦٣٠ هـ وهو صغير السن. قضى سنوات حكمه العشر في حروب متواصلة ضد منافسه ابن عمه يحيى المعتصم وضد الخارجين عليه، مما زاد في إضعاف الدولة الموحدية وتقوية شوكة بني مرين، وهو الذي أعاد الرسوم الموحدية التي سبق أن ألغاها أبوه المأمون، وفي عهده عادت إشبيلية إلى طاعة الموحدي بعد حادثة قتل ابن هود. وقد أحاط الرشيد نفسه بخيرة الأدباء الأندلسيين منهم أبو المطرف والرعيني وغيرهما.

انظر المعجب، ص ٤٧٥. البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٩٩. روض القرطاس، ص ٢٥٤. الذخيرة السنية، ص ٥٧. الإحاطة، ١: ١٧٥. دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني لعبد الله عنان. انظر الفهرس، أبوالمطرف، لمحمد بنشريفة، ص ١٢٢.

Huici Miranda: Historia del imperio almohade. 2.: 515، 520.

Emilio, M. Lopez: Dos importantes privilegios, wadunos del islam. no = 9/1978 - 1979.

٣ - ورد هذا الظهير في رسائل «أبي المطرف» مجلد ٢٣٢ ك، ورقة ١١٨ مع وجود بعض الاختلافات.

٤ - أبو علي الحسن بن أحمد بن خلاص البلنسي، المعروف بالسبتي والملقب بذي الوزارتين. بدأ حياته السياسية والياً على إشبيلية من لدن ابن هود. وفي سنة ٦٣٥ هـ وهي السنة التي قتل فيها ابن هود تنصلت إشبيلية في بيعتها للحكم الهودي لتعلن ولاءها للخليفة الموحدي الرشيد فذهب وفد إشبيلي للتقديم مراسيم الطاعة، وربما كان ضمن أعضاء الوفد أبو علي نفسه، فمنحه الرشيد ثقته وعيّنه والياً على سبتة سنة ٦٣٧ هـ فأحسن تدبيرهاوغدت موئلاً للمهاجرين الأندلسيين وهم يفرون بأنفسهم هرباً من جحيم الأحداث التي ألمت بالأندلس في الثلث الثاني من القرن السابع الهجري، فكانت تلك الهجرات سبباً في ازدهار حركة ثقافية بالمدينة. وعند وفاة الرشيد سنة ٦٤٠هـ استبد ابن خلاص بحكم المدينة لنفسه معلناً ولاءه للدولة الحفصية مدة ثلاث سنوات. لكنحادث غرق ابنه أبي القاسم ترك أثراً كبيراً في الأب مما دعاه إلى ترك حاضرته والتوجه إلى الإمارة الحفصية، وفي الطريق وبمرسى وهران مات، وحملت جثته إلى بجاية سنة ٦٤٣ هـ.

انظر:ديوان ابن سهل، مخطوط الإسكوريال ورقة ٣/ ١٠/ ٦١. البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٤٧، ٣٥٣، ٣٦٠، ٣٧٨. الذخيرة السنية، ص ٥٧، ٦٧، ٧٣. العبر، مج ٧: ٣٨٢ - ٣٨٣، ٣٩٤، ٧٦٢. الروض المعطار، ص ٥. النفح، مج ٧: ٤١٦. صبح الأعشى، مج ٧: ٩١. أبو المطرف لمحمد بنشريفة، ص ٧١. الخطيب، إسماعيل، الحركة العلمية في سبتة، ص ٣٨. ومواضيع أخرى.ديوان ابن الجنان مقدمة المحقق، ص ١٤.

Juaquin Valve: Relaciones de la Peninsula con el Magreb, P 120.

Emilio, M. Lopez: Dos importantes Privilegios, P 14 - 18.

- : Ibn Amira e ibn al-Jannan, P 64.

- : Historia de la region murciana, P 224 - 247.

٥ - انظر : بنشريفة، محمد . كتاب أبي المطرف - الرباط : منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي.

٦ - تمّ الاستيلاء عليها يوم ١٧ صفر سنة ٦٣٦هـ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٨ م.

٧ - البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٨٨.الإحاطة، ١: ٣١٢. العبر، ٦: ٥٣٠ - ٥٣١الاستقصاء، ٢: ٢١٤ - ٢١٧. وعن عداوة الأندلسيين للمغاربة.انظر الزجالي، أمثال العوام، تـ محمد بنشريفة، ١: ٢٠٥ والمصادر التي يحيل عليها.

وثيقة من التعليم الطبي في الحضارة الاسلامية

الدكتور

محمد فؤاد الذاكري

حلب

● العرب من أشغف الناس بالعلم ومن أحسنهم حفظاً لتراث الأمم الغابرة ومن أعظمهم عمراناً، أسسوا الجامعات والمكتبات والمشافي والخانقاهات في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة والقيروان وبخارى وسمرقند وغيرها من العواصم التي ازدهرت في أيام سلطانهم. ومن يدرس تاريخ العرب وحضارتهم، ويتعلم لغتهم وقرآنهم، ويطلع على دينهم وأدبهم، يتوصل إلى أن الأمة العربية ذات فضل على العلم والتمدن، وأنها من الأمم التي امتازت بكامل بنيتها وصحة أجسامها وعقولها وأخلاقها.

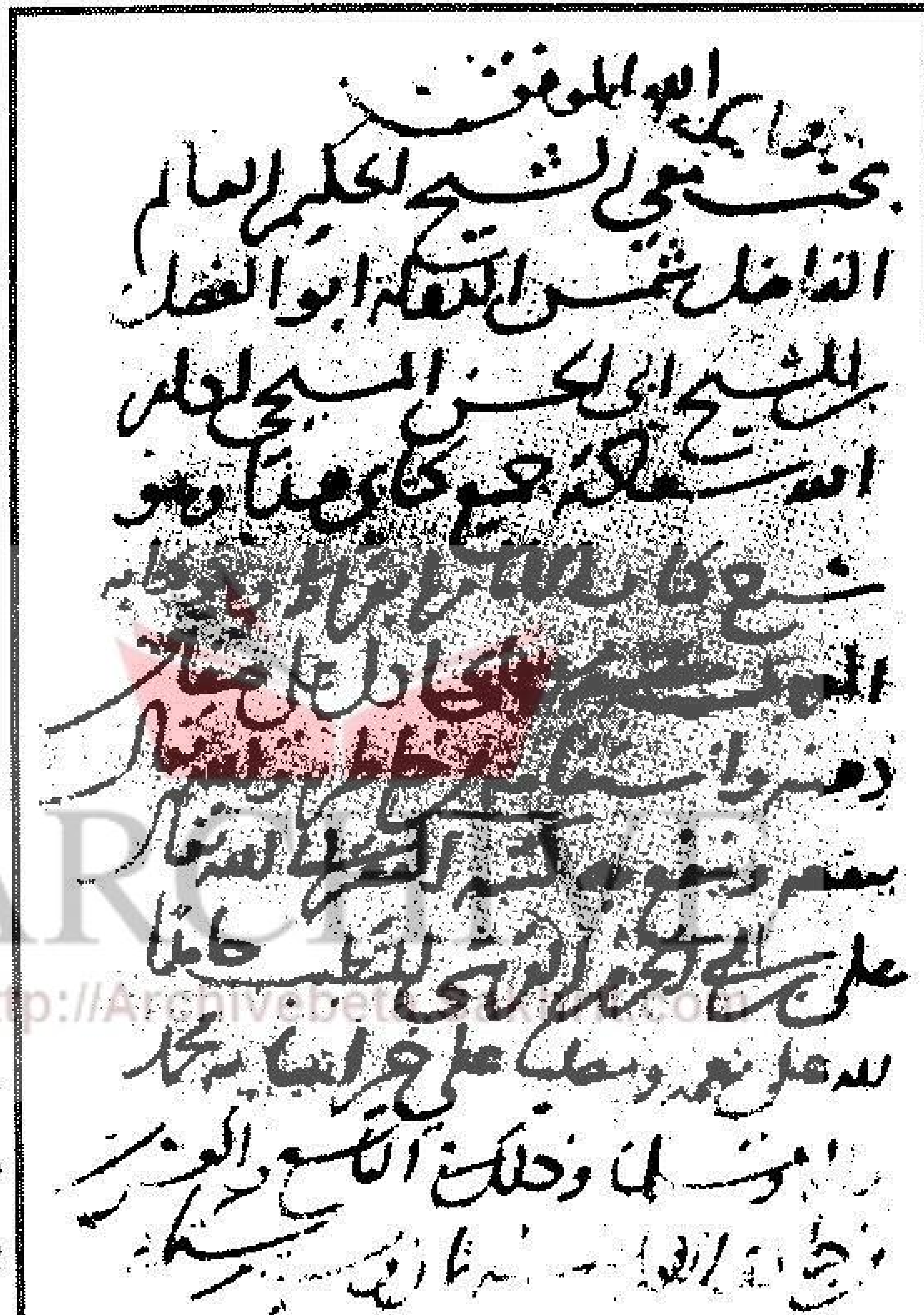
وقد نشأ في الحضارة العربية الإسلامية، طرق عدة لتدريس العلوم الطبية وإجازة الأطباء المؤهلين، ومن بينها:

١ - توارث احتراف الطب ضمن الأسرة الواحدة

إذ يقوم الآباء بنقل علومهم وخبراتهم المكتسبة إلى أبنائهم وحفدتهم. وسجّل لنا تاريخ الطب العربي أكثر من أسرة اشتهرت باحتراف الطب وتوارثه، ومن أشهرها أولاد زهر في الأندلس وأولاد بختيشوع في بغداد.

٢ - التدريس في البيمارستانات

من المعروف أن البيمارستانات التي انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي كانت دوراً لعلاج المرضى ومعاهد لتعليم الطب، اشتهر منها البيمارستان العضدي في بغداد، والبيمارستان الكبير النوري في دمشق، والبيمارستان النوري أو العتيق بحلب، وبيمارستان مراكش أو بيمارستان أمير المؤمنين المنصور أبي سيف (- ٥٩٥ هـ) وهو من ملوك الموحدين بالمغرب، وبيمارستان محمد الفاتح في القسطنطينية، وبيمارستان خوارزم(١). ومن الواضح أن البيمارستانات قد استقطبت للعمل فيها معظم الأطباء المعروفين والمشهورين، بفضل التنظيم الدقيق والأرزاق الواسعة التي أوقفها عليها ولاة الأمور وذوو اليسار.

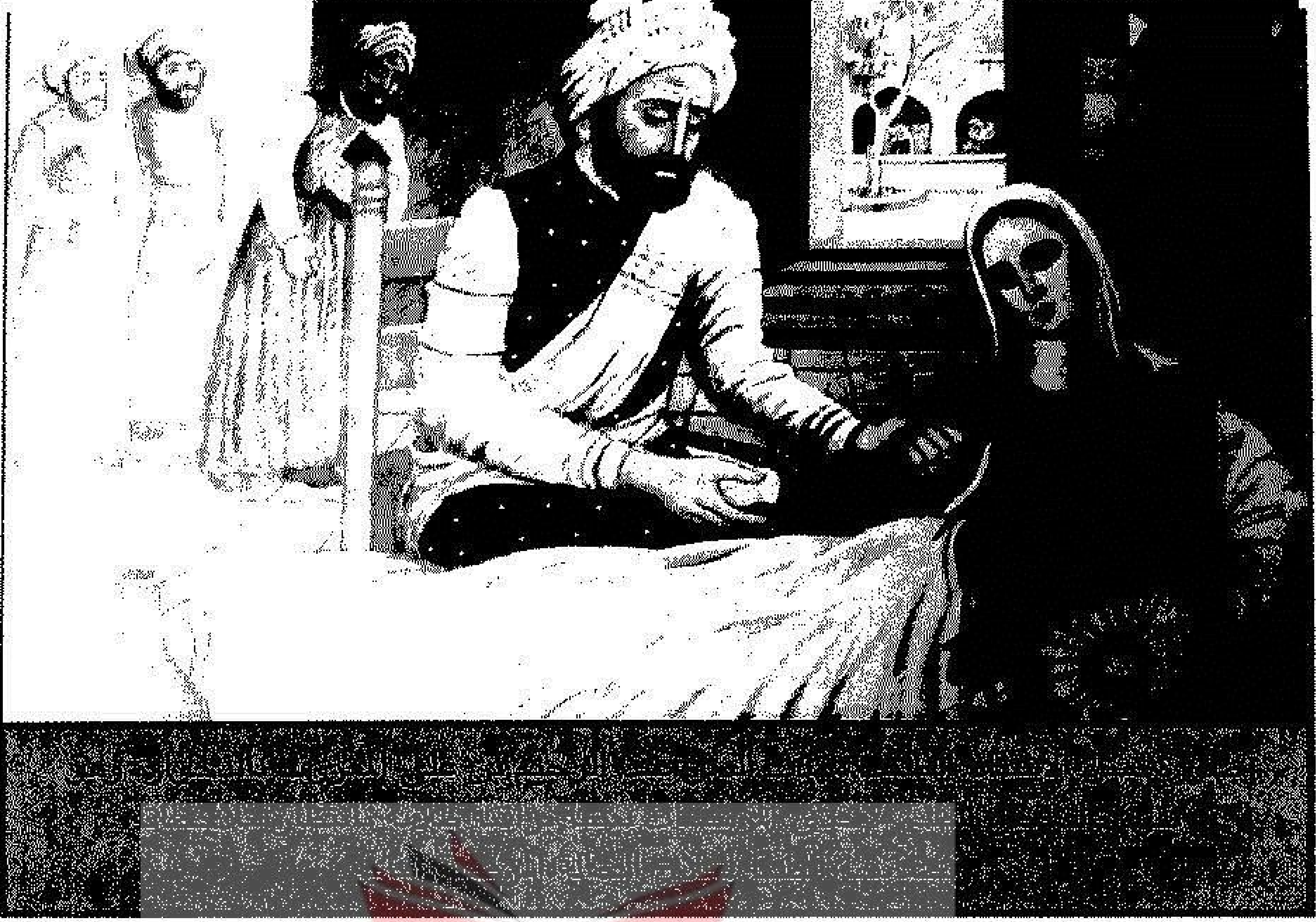


صورة عن الوثيقة النادرة التي تحتفظ بها المكتبة الطبية الامريكية وهي بخط ابن النفيس شخصياً ومؤرخة في (٦٨٧ هـ - ١٢٨٨ م)، وكتبها لتلميذه المدعو شمس الدولة ابو الفضل ابن ابي الحسن المسيحي وقد اجازه ابن النفيس بعد ان درس امامه كتاب طبيعة الانسان للطبيب اليوناني الشهير ابوقراط وذلك حسب قراءة النص

وإنشاء البيمارستانات أدى إلى ظهور التعليم الطبي النظامي، من خلال المجالس الطبية المعقودة ضمنها بشكل يومي منتظم، حيث كان الطلاب يتدربون على الأعمال الطبية المختلفة تحت إشراف الأساتذة الأطباء، الذين كانوا يدورون على المرضى لتشخيص أمراضهم وعللهم وتفقد أحوالهم ووصف ما يوافقهم من الأدوية والعلاجات اللازمة، التي كانت تُصرَف لهم مجاناً من صيدلية البيمارستان. وبعد ذلك يجلس كل من الطبيب وطلابه، ويبدؤون المباحثة والنظر في الكتب الطبية المتنوعة.

وقد وصف ابن أبي أصيبعة صورة لأحد كبار أساتذة التعليم الطبي في القرن السابع

الهجري، ألا وهو مهذب الدين عبدالرحيم بن علي المعروف بالدَخوار المتوفى بدمشق سنة



٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م فقال: «كان أوحد عصره وفريد دهره وعلاّمة زمانه، وإليه انتهت رئاسة صناعة الطب ومعرفتها على ما ينبغي، وكان مولده ومنشؤه بدمشق، وكان أبوه علي بن حامد كحالاً مشهوراً»(٢).

وفي مدينة دمشق وبالتحديد في بدايات القرن السابع الهجري، حوالي سنة ٦١٥ هـ، شرع الدَخوار في تدريس صناعة الطب، فاجتمع إليه خلق كثير من أعيان الأطباء وغيرهم للاستفادة من علمه الغزير وخبراته الطبية المتنوعة، وكان بعد أن يفرغ من العمل في البيمارستان الكبير النوري، يذهب إلى داره فيشرع في القراءة والدرس والمطالعة، ثم يأتيه قوم من الأطباء وطلاب العلم ليقرؤوا عليه الدروس الطبية، ويقوم بشرحها وتبسيطها لهم، ويصف ابن أبي أصيبعة أسلوب الدَخوار الرائع في تلقين العلوم الطبية لطلابه فيقول: «وكان يقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه، ويُفهِمُه إياه قدر طاقته، ويبحث في ذلك مع المُميزين منهم، إن كان الموضع يحتاج إلى فضل بحث، أو فيه إشكال يحتاج إلى تحرير. وكان لا يُقرِيء أحداً إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرأه ذلك التلميذ، ينظر فيه ويقابل به، فإن كان في نسخة الذي يقرأ غلط أمره بإصلاحه..

«وكانت نُسخ الشيخ مهذب الدين التي تُقرأ عليه في غاية الصحة، وكان أكثرها بخطه. ثم يشرع (الدَخوار) بقية نهاره في الحفظ والدرس والمطالعة ويسهر أكثر ليله في الاشتغال»(٣).

وسجل تاريخ الطب العربي للدَخوار مأثرة كبيرة، وهي تأسيسه أول مدرسة طبية خاصة في دمشق، تُعنى بتدريس العلوم الطبية، فقد أوصى أن تكون داره من بعد وفاته لهذه الغاية، وأوقف جميع أملاكه الخاصة لتُستَغل عوائدها في الإنفاق على متطلبات المدرسة، ودفع أجور المدرسين الأطباء والقائمين على إدارتها وشؤونها(٤). كما أوصى أن يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين بن علي بن الرحبي المتوفى سنة ٦٦٧ هـ.

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة، افتتحَت المدرسة الدخوارية في احتفال مناسب، حضره جماعة من الفقهاء والحكماء وأعيان البلد(٥)، واستمرت الدخوارية تقوم بواجبها في تخريج دفعات من الأطباء المُجازين الأكفياء حتى عام ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ م حسب بعض المصادر.

ومن أشهر تلامذة الدَخوار علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي

الملقب بابن النفيس (٦٠٧ - ٦٩٦ هـ = ١٢١٠ - ١٢٨٨ م)، ولد في دمشق، وتلقى علومه الطبية فيها، وسرعان ما اشتهر أمر ابن النفيس وذاع صيته، فرحل إلى مصر بعد أن استدعاه السلطان الكامل محمد الأيوبي عام (٦٢٣ هـ = ١٢٣٦ م). واستطاع أن يتبوأ منزلة رفيعة، أهّلته لرئاسة البيمارستان الناصري في القاهرة.



وابن النفيس كان عالماً بالنحو والفقه والفلسفة والطب، واسع الاطلاع، كثير التآليف: «إذا أراد التصنيف، توضَع له الأقلام مَبرية، ويُدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف إملاء من خاطره مثل السيل إذا انحدر، فإذا كل القلم وحفي رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمان في بَري القلم»(٦).

ومن أجمل ما يُحكى عنه، أنه دخل مرة إلى الحمام، فلما كان في بعض تغسيله، خرج إلى مشلح الحمام واستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمام وأكمل تغسيله.

ويعدّ ابن النفيس أعظم عالم بوظائف الأعضاء، استطاع أن يفهم الدورة الدموية الصغرى ويكتشفها، وهو أول من وصفها فكان رائداً لمن أتوا بعده.

ولا تقتصر اكتشافات ابن النفيس الطبية المهمة على وصف تشريح القلب والشرايين الإكليلية والدورة الدموية الرئوية، بل وصف الأعصاب القحفية والطرق الصفراوية، كما أن له اكتشافات في تشريح المري والمعدة.

وفي القاهرة كان يشهد مجلسه العلمي في داره جماعة من الأمراء والأطباء وطلاب العلم، ومن بينهم المدعو شمس الدولة أبو الفضل ابن الشيخ أبي الحسن المسيحي، حيث قام ابن النفيس بتدريسه كتاب «طبيعة الإنسان» لأبقراط (٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م)(٧).

وبعد الفراغ من شرح محتويات الكتاب واستيعابها، طلب شمس الدولة من أستاذه ابن النفيس أن يحرر له إجازة تتضمن هذا المعنى، فقام بتحرير هذه الوثيقة، التي تعدّ من أندر الوثائق المتعلقة بمسيرة التعليم الطبي في الحضارة العربية الإسلامية، والنسخة الأصلية لهذه الوثيقة في المكتبة الوطنية الطبية بالولايات المتحدة الأمريكية(٨)، وهي بخط ابن النفيس ومن إنشائه وتحريره، تاريخها في ٢٩ جمادى الأولى سنة ٦٦٨ هـ الموافق ٢٥ كانون الثاني سنة ١٢٧٠ م.وقد جاء في الوثيقة مايلي:

الله الموفق.

بحث معي الشيخ الحكيم العالم الفاضل شمس الدولة أبو الفضل بن الشيخ أبي الحسن المسيحي أدام الله سعادته جميع كتابي هذا وهو شرح كتاب الإمام أبقراط وهو كتابه المعروف بطبيعة الإنسان كما دلّ عل صفاء ذهنه واستقامة من خاطره والله تعالى ينفعه وينفع به.

كتبه الفقير إلى الله تعالى علي بن أبي الحزم القرشي المتطبب حامداً لله على نعمه ومصلياً على خير أنبيائه محمد وآله ومسلماً وذلك في التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة ثمان وستين وستمائة.

توفي ابن النفيس في القاهرة وقد قارب الثمانين ووقف أملاكه وكتبه على البيمارستان المنصوري. ومن مؤلفاته الطبية «الشامل في الطب» وهو موسوعة طبية ضخمة جامعة و«شرح فصول أبقراط» و«شرح تقدمة المعرفة» و«شرح كليات القانون».

إن إنشاء البيمارستانات وتأسيس مدارس خاصة لتدريس العلوم الطبية، أديا إلى ظهور التعليم الطبي النظامي، وانعكس ذلك على المستوى الصحي والخدمات الطبية في بلاد العالم الإسلامي، فكانت في وضع مرموق لا يضاهيه بها أي مكان آخر.

الحواشي

١ - عيسى، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام.
٢ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٧٢٨.
٣ - المصدر السابق، ص ٧٣٢.
٤ - عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٣: ١٣٠.
٥ - عيون الأنباء، ص ٧٣٣.
٦ - أحمد عيسى، معجم الأطباء، ص ٢٩٤.
٧ - عيون الأنباء، ص ٥٤.
٨ - National Library of Medicine Bethesda, Maryland, وتحمل الوثيقة رقم: NLM MS A69
٩ - معجم الأطباء، ص ٢٩٦.

فضل العلم الشريف وأهله وطالبيه وما ورد فيه من الآيات العظيمة والأخبار الكريمة والآثار الجسيمة

وضع

محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي بن ظهيرة (- ٩٨٦ هـ)

تحقيق الأستاذ

عبد القادر أحمد عبد القادر

قسم المخطوطات
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

المقـــدمـــة

● اتخذ المصنفون من هذه الأمة منذ بدىء بتصنيف العلوم المختلفة أسلوباً متميزاً ومنهاجاً سديداً فتح أمام القارئين أبواباً عديدة، هذا المنهج يعتمد في أولياته على المقدمة التي يقدم بها المصنف كتابه، موضحاً فيها أهمية الموضوع الذي سيبحثه ويخوض فيه، والأسباب التي دفعته إلى البحث فيه، والفائدة التي يجنيها القارىء له والمطلع عليه، وتقسيمه لبحثه وما يتناوله في كل قسم؛ لذلك تأتي أهمية المقدمة، حيث يتعرف المطلع عليها ما يريده، فإما أن يستمر في المطالعة، وإما أن يختار فصولاً محددة يجذبه إليها اهتمامه بما تحتويه من معارف ومعلومات يحتاج إليها، وإما أن يقف عند المقدمة فلا يعدوها.

إلا أن بعض المصنفين خرجوا على هذا المنهج ولم يسيروا عليه، وتفصيل هذا الخروج، أو الاستدلال عليه، نتعرفه من قراءة مقدمة أي كتاب، فابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المتوفى سنة ٨٠٨ هـ، طالت مقدمة كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» كثيراً، حتى غدت كتاباً قائماً بذاته، فيه طروحات كثيرة، حتى عُدّ ابن خلدون واضع أسس علم الاجتماع بكتابته هذه المقدمة. والأمثلة على ذلك أكثر من أن نحصيها هنا.

وممن خرج على هذا المنهج، ابن ظهيرة في مقدمته لكتابه «الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف»، فقد قدّم لكتابه بمقدمتين، الأولى بيّن فيها نعم الله السابغة على أهل مكة بمجاورتهم بيته الأمين، ثم بيّن قدسية الكعبة، والمسجد الحرام، وبعد ذلك تناول الحديث مَنْ تصدّى للتصنيف في فضائل مكة وأخبارها، وبيّن أن بعضها جاء مطولاً، وبعضها يميل مصنفه فيه إلى الإيجاز والاختصار، وأن مؤلفه هذا متوسط، غير مختصر مخلّ، ولا مطول ممل.

ثم بيّن تقسيمه لكتابه هذا. ومن ضمن التقسيم المقدمة الثانية وهي مقدمة لا صلة مباشرة لها بالموضوع، فقد تناول فيها فضل العلم الشريف وأهله، حتى إنه وضع لها عنواناً موحياً هو: «فضل العلم الشريف وأهله وطالبيه، وما ورد فيه من الآيات العظيمة، والأخبار الكريمة، والآثار الجسيمة»، ومن هنا جاء اهتمامنا بهذه المقدمة؛ لاحتوائها على ما يشجع طالب العلم للأخذ منه بنصيب ويدفعه إليه، فأردنا أن نقوم بنشرها محققة، لعلّنا نسدّ بذلك ثغرة صغيرة في صرح تراثنا العلمي، بفنونه المتنوعة، أو نساعد في إزالة بعض تراكمات غبار الزمن، عن هذا التراث.

المؤلف : اسمه ونسبه

كاتب هذه المقدمة علم من أسرة مشهورة بالعلم، أسرة مكية من بني مخزوم، عرف منها غير واحد من الحفاظ، والقضاة والمحدثين، في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، وقد ترجم لهم السخاوي، محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ هـ في كتابه «الضوء اللامع»، والسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفى سنة ٩١١ هـ في كتابه «نظم العقيان»، والمحبي، فضل الله بن محب الله بن محمد المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ في كتابه «خلاصة الأثر»، وصُنّفَ كتاب خاص لترجمة أعلام بني ظهيرة هو كتاب «البدور المنيرة في السادة بني ظهيرة». وقد جاء في بروكلمان ٢:٥١٤: «ظهيرة بصيغة التصغير، مضموم الأول».

أما مؤلف كتاب «الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف»، فقد اختلفت المصادر التي ترجمت له في اسمه، فقد جاء اسمه في الأعلام: محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي بن ظهيرة المكي المخزومي الحنفي، جمال الدين.

وجاء في معجم المطبوعات ١:١٥٠، وفي

مقدمة كتاب «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»: جار الله جمال الدين محمد بن نور الدين محمد بن أبي اليمن بن أبي بكر بن علي.. ابن ظهيرة، وجاء اسمه في النسخة المطبوعة ضمن كتاب «المنتقى في أخبار أم القرى»: جمال الدنيا والدين محمد بن أمين بن ظهيرة، وفي النسخة المطبوعة في مصر، جاء اسمه متوافقاً مع ماجاء في الأعلام.

لكن المصادر كلها تتفق في نسبته إلى بني مخزوم، حي من قريش ينتمي نسبهم إلى مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن فهم، ويلتقون مع النبي صلى الله عليه وسلم في جده «مرة».

وابن ظهيرة هذا من علماء القرن التاسع، وبيته بمكة المشرفة، قريباً من البيت الحرام، وجاءته هذه النسبة من جده الثالث، وقد وجدناه في هذا الكتاب يروي عنه كثيراً بقوله: قال الجد رحمه الله، وجده هذا كان من علماء الشافعية في القرن الثامن.

وأما مؤلف هذا الكتاب فإنه كان حنفي المذهب عالماً من علماء مكة المحققين، وقد تولى القضاء فيها، وألّف هذا الكتاب في سنة خمسين وتسعمائة في ولاية السيد أبي نمى بن السيد أحمد بن السيد بركات بن السيد أبي نمى الأول، وأبو نمى الثاني كان والياً من قبل الخليفة العثماني السلطان سليمان بن السلطان سليم. وكانت وفاته سنة ٩٨٦ هـ.

النسخ المخطوطة

لم نتمكن من معرفة أماكن وجود مخطوطات هذا الكتاب، فيما رجعنا إليه من فهارس متوافرة في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، حيث لم نجد له ذكراً فيها، غير نسخة في دار الكتب المصرية، التي تحمل الرقم ٢٩٤٦، وهي نسخة حديثة بخط الشيخ عبد الستار الصديقي، تاريخها سنة ١٣٠٠ هـ، ويليها ذيل للناسخ انتهى فيه إلى أثناء إمارة الشريف حسين بن علي بن عون، المتوفى سنة ١٣٣٠ هـ.

ونسخة في مكتبة المتحف العراقي في بغداد، وتحمل الرقم ١٤٦٦٣، وهي نسخة جيدة يعود تاريخها إلى سنة ١١١٦ هـ، كتبت بقلم النسخ على يد أحمد بن سليمان الأجهوري.

النسخ المعتمدة في التحقيق

اعتمدنا في تحقيق هذه المقدمة على نسختين:

أ - نسخة عيسى البابي الحلبي، المطبوعة سنة ١٣٤٠ هـ، وهي طبعة غير محققة، ورمزنا لها بالحرف أ، واعتمدناها النسخة الأم.

ب - نسخة المستشرق الألماني فرديناند وستنفيلد، المطبوعة في ليبزغ سنة ١٨٥٩ م، ضمن كتابه «المنتقى في أخبار أم القرى»، حيث جمع فيه فصولاً من ثلاثة كتب هي: «تاريخ مكة» لمحمد بن إسحق الفاكهي، و«شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام»، لمحمد بن أحمد الفاسي، و«الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف»، لابن ظهيرة، حيث أورد للأخير فيه مقدمته، وباباً آخر فقط. وفيها تحريفات كثيرة وسقط، ورمزنا لها بالحرف ب.

وقد قمنا بنسخ هذه المقدمة، وبمقارنة النسختين، وأثبتنا الفروق في الحواشي، كما قمنا بتخريج الآيات، والأحاديث، والآثار، وأبيات الشعر ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

نرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجه الله تعالى، فمنه نستمد العون، والتوفيق، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن العلم شرف الإنسان، وفخر له في جميع الأزمان، وهو العز الذي لا يبلى جديده، والكنز الذي لا يفنى خريده(١)، وقدره عظيم، وفضله جسيم. قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾(٢)، برفع العلماء على الفاعلية(٣)؛ أي إنما يخاف الله من عرفه حقّ معرفته، وهم العلماء.

وقرىء في الشواذ برفع الاسم الشريف على الفاعلية، ونصب العلماء على المفعولية(٤)، وهذا مروي عن جماعة من العلماء(٥)، منهم [إمامنا](٦) أبو حنيفة، رضي الله عنه.

كان الأستاذ الكمال بن الهمام(٧) في مجلس تدريسه، فأورد عليه سائل قراءة أبي حنيفة المذكورة، فأجابه بقول الشاعر:

أهابكِ إجلالاً وما بكِ قدرةٌ
عليّ ولكن ملءُ عين حبيبها(٨)

وحينئذ فالمراد بالخشية الإجلال، فيكون المعنى، على هذا، إنما يجلّ الله من عباده العلماء(٩).

وقال تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾(١٠)، الآية، فقرنهم بالملائكة، ثم عطف شهادتهم على شهادته، وميزهم من بين سائر الخلق، وفضّلهم على جميع الناس بقوله(١١) تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾(١٢).

ومنّ على [سيّد](١٣) البشر بقوله تعالى: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾(١٤).

ثم قال تعالى تنويهاً بشأن العلماء: ﴿وعُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾(١٥)، وقال تعالى: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم»(١٦).

وقال تعالى، في جواب الكفار حين سألوا: وما الرحمن؟ : ﴿الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان﴾(١٧).

وقال تعالى في حقّ العلماء: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(١٨). وقال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾(١٩). قال بعض المفسرين: «[رفعتهم](٢٠) تشمل المعنوية في الدنيا، بحسن الصيت، وعلو المنزلة، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة»(٢١).

وقال تعالى: ﴿وقل ربّ زدني علماً﴾(٢٢). وجه الدلالة أنّ الله تعالى لم يأمر نبيّه بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم.

ومثل هذا كثير في كتاب الله تعالى.

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله: «أنا الذي خلقت الخلق والقلم، وعلمت الناس البيان».

وأما ما جاءت به السنة فأكثر من أن يُحاط به، فمن ذلك:

ما روي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم، وطالب العلم يستغفر له كلّ شيء حتى الحوت في البحر»(٢٣).

وروى عطية العوفي(٢٤)، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من غدا لطلب العلم صلّت عليه الملائكة، وبورك له في معيشته»(٢٥).

وعن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة»(٢٦)، وفي رواية: «سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة»، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم لرضاها بما يصنع»(٢٧). قال بعض العلماء: المراد بوضع الأجنحة التواضع على جهة التشريف، وقيل: على الحقيقة، تضع أجنحتها لهم، فيمشون

عليها، ولا يدركون ذلك للطافة أجسادهم».

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ به، فقد أخذ بحظّ وافر»(٢٨).

وعن أبي إسحق المزني يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقال للعابد يوم القيامة: ادخل الجنة، ويقال للعالم: قف، واشفع لمن شئت»(٢٩).

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العالم والمتعلم كهذه من هذه، وجمع بين المسبِّحة والتي تليها، شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد»(٣٠).

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اغد عالماً أو متعلماً، أو مستمعاً أو محباً لذلك، ولا تكن الخامسة فتهلك»(٣١).

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مسألة واحدة يتعلمها المؤمن خير له من عبادة سنة، وخير له من عتق رقبة من ولد إسماعيل».

لطيفة:

[تخصيص](٣٢) أولاد إسماعيل بالذكر دون غيرهم قيل: «لكونهم أفضل أصناف الأمم، فإنّ العرب أفضل الأمم، ثم أفضلهم أولاد إسماعيل». وقيل: «[لأن](٣٣) أولاد إسماعيل لم يجر عليهم رقّ قبل الإسلام».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم [خيراً](٣٤) أو يعلمه، كان له كأجر حاج تامّاً حجه»(٣٥)، رواه مسلم.

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»(٣٦).

وفي الترمذي: «فقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد»(٣٧).

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «[يشفع](٣٨) يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»(٣٩).

قال بعض الفضلاء: «أكرم [بمرتبة](٤٠) هي متوسطة بين النبوة والشهادة»(٤١). أقول: في العطف بثم أدلّ دليل على أفضلية العلماء على الشهداء، كما لا يخفى على من عرف الحكم النحوي في ثمّ(٤٢). انتهى.

وفي الفائق عنه صلى الله عليه وسلم: «تعلموا العلم وعلموه الناس»(٤٣).

وفيه أيضاً: «تعلموا العلم واعملوا به»(٤٤).

وفيه: «تعلموا العلم قبل أن يرفع»(٤٥).

وفيه: «تعلموا العلم وكونوا من أهله»(٤٦).

وفيه: «إنّ أهل الجنة ليحتاجون إلى العلماء في الجنة، كما يحتاجون إليهم في الدنيا»(٤٧).

لطيفة:

من الاحتياج إلى العلماء في الجنة أنه إذا دخل أهل الجنة إليها يعطيهم الله جميع ما يتمنونه، ولا يزالون يتمنون بإذن ربهم، حتى تعجز عقولهم وتدبيراتهم عن الأماني؛ لأنهم نالوا كلّ ما أرادوا من النعيم، فيقول الله سبحانه وتعالى بعد ذلك كله: تمنوا، فلا يعرفون ما يتمنّون، فيرجعون حينئذ(٤٨) إلى [العلماء](٤٩)، فيسألونهم ما يتمنون، فيستنبطون لهم أشياء من أسرار الله تبارك وتعالى، فيتمنونها»(٥٠). كذا في «[حادي] القلوب(٥١) إلى لقاء المحبوب»، [لابن بنت الميلق](٥٢) الشافعي رحمه الله.

والأحاديث في ذلك كثيرة جداً، وهذا بعض [بعض](٥٣) من كلّ.

وقال بعض الفضلاء: العلم أمان من كيد الشيطان، وحرز من كيد الحسود، ودليل العقل. ولقد أحسن من قال: [البسيط]:

ما أحسن العقل والمحمود من عقلا
وأقبح الجهل والمذموم من جهلا
فليس يصلح نطق المرء في جدل
والجهل يفسده يوماً إذا سئلا

والعلم أشرف شيء [ناله](٥٤) رجل
من لم يكن فيه علم لم يكن رجلاً
تعلم العلم واعمل يا أُخيَّ به
فالعلم زين لمن بالعلم قد عملا(٥٥)

[وعن بعض الحكماء أنه قال](٥٦): العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرفق والده، والبرّ أخوه، والصبر أمير جنوده»(٥٧).

وقال بعض الحكماء: «لمثقال ذرة من العلم أفضل من جهاد الجاهل ألف عام».

وقال الإمام الشافعي، [رضي الله عنه، وأعاد علينا من بركاته](٥٨): «الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة»(٥٩)، وقال: «ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم».

وقال بعض العلماء: «العلم نور يهتدي به الحائر»، وفي معناه أنشدوا [البسيط]:

بالعلم تحيا نفوس قط ما عرفت
من قبل ما الفرق بين الصدق والمين
العلم للنفس نور [تستدل](٦٠) به
على الحقائق مثل النور للعين

[وقال آخر [الطويل]:

كفى شرفاً بالعلم دعواه جاهل
ويفرح إن أمسى إلى العلم ينسب
ويكفي خمولاً بالجهالة أنني
أُراح متى أنسب إليها وأغضب](٦١)

وقال(٦٢) [عبد الملك بن مروان] لبنيه: «يا بنيّ، تعلموا العلم، فإن استغنيتم كان كمالاً وإن افتقرتم كان لكم مالاً»(٦٣). وأنشد في معناه [البسيط]:

العلم بلغ قوماً(٦٤) ذروة الشرف
وصاحب العلم محفوظ من التلف
يا صاحب العلم مهلاً لا تدنّسه
بالموبقات فما للعلم من خلف
العلم يرفع بيتاً لا عماد له
والجهل يهدم بيت العزّ والشرف(٦٥)

وقال بعض الفضلاء: «ينبغي لكل عاقل أن يبالغ في تعظيم العلماء ما أمكن، ولا يعدّ غيرهم من الأحياء». وقد أجاد من قال [الكامل]:

ومن الجهالة أن تعظّم جاهلاً
لصقال ملبسه ورونق نقشه
واعلم بأنّ التبر في بطن الثرى
خافٍ إلى أن يستبين بنبشه
وفضيلة الدينار يظهر سرّها
من حكّه لا من ملاحة نقشه(٦٦)

وقال أبو طالب المكي(٦٧) في «قوت القلوب»: جاء في الخبر أن الله تعالى لا يعذر على الجهل، ولا يحلّ للجاهل أن يسكت على جهله، ولا يحلّ للعالم أن يسكت عن علمه، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾(٦٨).

وقال سيدي الشيخ سهل بن عبدالله التستري(٦٩)، رضي الله عنه، وأعاد عليَّ من بركاته: «ما عصي الله بمعصية أعظمَ من الجهل، وما أطيع الله بمثل العلم».

وقال [بعضهم](٧٠) رضي الله عنه: «قسوة القلب بالجهل أشدُّ من قسوته بالمعاصي».

قال الشيخ محمد بن علي المنهاجي(٧١)، رحمه الله: «قلت، والله أعلم: [ولهذا] نجد(٧٢) الجاهل يبغض كلّ من كان طالباً للعلم، ويعدّ ذلك عيباً»، وقيل في معنى ذلك [البسيط]:

عاب التعلم قوم لا عقول لهم
وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضرّ [شمس](٧٣) الضحى والشمس طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر(٧٤)

وقال علي كرّم الله وجهه: «العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، والعلم يزيد بالإنفاق، والمال ينقص بالنفقة»(٧٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «خيِّر سليمان بن داود، صلوات الله عليه، بين

العلم والملك والمال، فاختار العلم، فأعطي الملك والمال معه»(٧٦).

وقال [الإمام](٧٧) مالك بن أنس، رضي الله عنه: «ليس العلم بكثرة الرواية، [وإنما](٧٨) العلم نور يجعله الله في قلب من يشاء»(٧٩).

وقال بعض الحكماء: «ليت شعري، أيّ شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم»(٨٠).

وما أحسنَ ما قيل [الطويل]:

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم
وعنه [فاكشف](٨١) كلّ من عنده فهم
ففيه جلاء للقلوب من العمى
وعون على الدين الذي أمره [حتم](٨٢)
فخالط رواة العلم واصحب خيارهم
فصحبتهم زين وخلطتهم غنم
ولا تعدُون عيناك عنهم فإنهم
نجومُ هدى [إن غاب](٨٣) نجم بدا نجم
فوالله لولا العلم ما اتضح الهدى
ولا لاح من غيب الأمور لنا رسم(٨٤)

وعن ابن المبارك أنه قال: «لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه قد علم، فقد جهل».

وعن [محمد](٨٥) بن عثمان بن أبي شيبة(٨٦) قال: «سمعت وكيعاً(٨٧) يقول: «لا يكون الرجل عالماً حتى يسمع ممن هو أسنّ منه، وممن هو مثله، وممن هو دونه».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «منهومان لا يشبعان، طالب العلم، وطالب الدنيا، وهما لا يستويان، أما طالب العلم، فيزداد رضى الرحمن، وأما طالب الدنيا فيزداد في الطغيان»(٨٨)، ثم قرأ: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾(٨٩)، ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾(٩٠).

وما أحسن(٩١) قول بعضهم(٩٢) [البسيط]:

وما [الفضل](٩٣) إلا لأهل العلم إنهم
على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كلّ امرىء ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيّاً به أبداً
فالناس موتى وأهل العلم أحياء(٩٤)

وقيل [للحسين بن الفضل](٩٥)، رضي الله عنه: هل تجد في القرآن: من جهل شيئاً عاداه؟ فقال: نعم، في موضعين؛ قوله تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا به علما﴾(٩٦)، وقوله تعالى: ﴿وإن لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك عظيم﴾(٩٧).

وقال يحيى بن معاذ الرازي(٩٨)، رضي الله عنه: «العلماء أرأف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم وأرحم عليهم من آبائهم وأمهاتهم، وذلك أنّ آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا [وآفاتها](٩٩)، والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة وشدائدها».

وقال سفيان الثوري، رضي الله عنه: «العجائب عامة، [وفي](١٠٠) آخر الزمان أعم، والنوائب طامة، وفي أمر الدنيا أطم، والمصائب عظيمة، وموت العلماء أعظم، وإنّ العالم حياته رحمة [للأمة](١٠١)، وموته في الإسلام ثلمة»(١٠٢).

وعن معاذ: «تعلموا العلم؛ فإنّ تعلّمه [جُنَّة](١٠٣)، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة»(١٠٤).

وما أحسن قول الزمخشري [الوافر]:

وكلّ فضيلة فيها سناء
وجدت العلم من هاتيك أسنى
فلا تعتدّ غير العلم ذخراً
فإن العلم كنز ليس يفنى

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال(١٠٥): «موت ألف عابد قائم الليل، صائم النهار أهون من موت العالم البصير بحلال الله وحرامه»(١٠٦).

والكلام في هذا يطول. ولنختم هذا [النوع](١٠٧) بحديث [نبوي](١٠٨) ورد في الصحيحين عن [عبد الله](١٠٩)

ابن عمرو بن العاص، رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء، حتى لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا»(١١٠).

وهذا التعليق لا يحتمل أكثر من هذا، وفيما ذكرته مقنع.

اللهم إني أسألك بجاه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم أن ترزقني علماً نافعاً، وتختم لي بالخير، وتحشرني في زمرة من ذكرتهم بقولك تبارك اسمك: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾(١١١).

آمين يا رب العالمين.

الحواشي

١ – في أ : مزيده، والمثبت من ب.

٢ – سورة فاطر : ٢٨.

٣ – قراءة الجمهور برفع العلماء على الفاعلية، وبنصب لفظ الجلالة. انظر إملاء ما منّ به الرحمن، ٢:١٠٤. والبحر المحيط، ٧:٣١٢. والكشاف، ٣:٢٧٥.

٤ – إملاء ما منّ به الرحمن، ٢:١٠٤. البحر المحيط، ٧:٣١٢. الكشاف، ٣:٢٧٥.

٥ – القراءة هذه مروية عن عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة، كما جاء في الكشاف، ٣:٢٧٥. ولم نجدها في كتب الشواذ في القراءات. كما ذكرها عن أبي حيوة، يوسف بن جبارة في كتابه الكامل. البحر المحيط، ٧:٣١٢. وفي تفسير القرطبي، ١٤:٣٤٤ منسوبة لعمر بن عبد العزيز، وأبي حنيفة.

٦ – كلمة إمامنا ساقطة من أ، والزيادة من ب.

٧ – هو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد ابن مسعود السواسي الأصل، الإسكندري، المعروف بابن الهمام، كمال الدين (– ٨٦١ هـ)، عالم مشارك في الفقه والأصول والتفسير وعلم الطبيعة والفرائض والحساب والتصوف والعلوم العربية، وغير ذلك. كان معظماً عند الملوك وأرباب الدولة، له: شرح الهداية، ومختصر الرسالة القدسية، وغير ذلك. ترجمته في: الضوء اللامع، ٨:١٢٧. البدر الطالع، ٢:٢٠١. حسن المحاضرة، ١:٢٧٠. شذرات الذهب، ٧:٢٩٨. بغية الوعاة، ٧٠.

٨ – البيت نسب لنصيب بن رباح، ديوانه، ص ٦٨. ونسب لمجنون ليلى، ديوانه، ص ٦٧. وفي سرح العيون، ص ٣٥٦ منسوب للمجنون، والأغاني، ٩:٢٨٧، ٤:١١٩. ونسب في مجمع البيان، ٥:١١٩ لذي الرمّة، ولم أجده في ديوانه. والبيت شاهد نحوي على وجوب تقديم الخبر إذا كان في المبتدأ ضمير يعود إلى شيء من الخبر. انظر أوضح المسالك، ١:١٥٢. الشاهد، ٧٥. وابن عقيل، ٢:١٢٧.

٩ – وهذا على تأويل أن الخشية هنا للتعظيم، لأن من خشي وهاب أجلَّ وعظَّم من خشيته وهاب؛ أي استعيرت الخشية للتعظيم، انظر إملاء ما منّ به الرحمن، ٢:١٠٤. البحر المحيط، ٧:٣١٢، الكشاف، ٣:٢٧٥. وفي تفسير القرطبي، ١٤:٣٤٤، «إنما يجلهم ويعظمهم كما يجلّ المهيب المخشيّ من الرجال بين الناس من جميع عباده».

١٠ – سورة آل عمران: ١٨، وفي ب: قوله تعالى: «قائماً بالقسط» ساقط.

١١ – في ب: لقوله.

١٢ – سورة العنكبوت: ٤٣.

١٣ – في أ: سائر، والمثبت من ب.

١٤ – سورة النساء: ١١٣.

١٥ – سورة الأنعام: ٩١.

١٦ – سورة العلق: ٥.

١٧ – سورة الرحمن: ١ – ٤.

١٨ – سورة الزمر: ٩.

١٩ - سورة المجادلة: ١١.

٢٠ - في أ: رفعتها، والمثبت من ب.

٢١ - في تفسير القرطبي: ١٧:٢٩٩، «أي في الثواب في الآخرة، وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم». وذكر فيه قصصاً تدل على مكانة العلماء ورفعتهم وكرامتهم وتقديمهم على غيرهم. انظرها: ١٧:٣٠٠.

٢٢ - سورة طه: ١١٤.

٢٣ - الحديث في الجامع الصغير، ٢:٥٣، نقلاً عن ابن عبد البر في جامع البيان معزواً لأنس، ورمز له بالصحة. ورواه ابن ماجة، ١:٨١، في المقدمة، باب فضل العلماء والحثّ على طلب العلم، وروى الجزء الأول منه الديلمي في فردوس الأخبار، ٣:١٥. وأخرجه بلفظه كاملاً ابن عبد البر في جامع بيان العلم، ص ٧.

٢٤ - هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي القيسي الكوفي، أبو الحسن (- ١١١ هـ)، من رجال الحديث، كان يعد من شيعة أهل الكوفة، خرج مع ابن الأشعث، ثم لجأ إلى فارس واستقرّ بخراسان. ترجمته في: تهذيب التهذيب، ٧:٢٢٤. ذيل المذيل، ص ٩٥.

٢٥ - أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم، ١:٤٥، وفي آخره زيادة: «ولم ينقص من رزقه، وكان عليه مباركاً».

٢٦ - في ب: طريقاً من طرق الجنة.

٢٧ - الحديث رواه ابن ماجة، ١:٨١، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. ورواه الدارمي في سننه، ١:٨٣، في المقدمة، باب في فضل العلم والعالم. ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن حبّان، والبيهقي في شعب الإيمان، ٤:٣٢٧. والحاكم في المستدرك، وأبو يعلى، والطبراني في الكبير. والترمذي، ٥:٤٨، في العلم. ما جاء في فضل الفقه على العبادة، قال أبو عيسى لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس عندي بمتصل، إنما يروى عن عاصم عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أصح.

٢٨ - الحديث رواه أبو داود، ٣:٣١٧، في العلم، باب الحث على طلب العلم. والترمذي، ٥:٤٨، في العلم، ما جاء في فضل الفقه على العبادة. وابن ماجة، ٣:٨١، في المقدمة، باب فضل العلماء. وجاء فيه ضمن حديث طويل. والإمام أحمد في مسنده، ٥:١٩٦. والديلمي في الفردوس، ٣:١٠١. وابن عبد البر في جامع بيان العلم، ٣٥، ٣٦، ٣٧. وانظر الحاشية ٣١.

٢٩ - الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، ٤:٣٤٦، برقم ١٥٨٨، عن جابر بن عبد الله. وأخرجه ابن عدي في الكامل، ٦:٢٤٣٠، في ترجمة مقاتل بن سليمان، كما أخرجه أيضاً في الكامل، ٢:٨١٩. وابن عبد البر في جامع بيان العلم، ١:٢٢٢. والخطيب في الفقيه والمتفقه، ١:٢٠.

٣٠ - الحديث رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم، ص ٢٨، عن أبي أمامة. ورواه ابن ماجة، ١:٨٣، في المقدمة، باب فضل العلماء، وروى الجزء الأخير منه الديلمي في فردوس الأخبار، ٣:١٠٣.

٣١ - الحديث رواه الديلمي في الفردوس، ١:٥٢٢. والهيثمي في مجمع الزوائد، ١:١٢٢، قال: أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة عن أبي بكرة، ورجاله موثوقون، وفي فيض القدير، ٣:١٧، قال المناوي: قال أبو زرعة العراقي في المجلس، ص ٥٤٣ من إملائه: حديث ضعيف، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ورواه الطبراني في الصغير، ٢:٩، وأبو نعيم في الحلية، ٧:٢٣٧. وورواه الدارمي في سننه، ١:٦٩، في المقدمة، برقم ٢٥٤، بلفظ: «اغد عالماً أو متعلماً أو

مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك». والبيهقي في سننه، ٣٣٩:٤، برقم ١٥٨١. وابن عبد البر في جامع بيان العلم، ٣٠:١. والبزار في مسنده، ٨٣:١. والمقصود بالخامسة بغض العلماء. انظر مجمع الزوائد، ١٢٢:١، وقيل: المبتدع.

٣٢ – في أ : تخصص، والمثبت من ب.

٣٣ – في أ : إن، والمثبت من ب.

٣٤ – في أ : خيراً له، والمثبت من مجمع الزوائد، ١٢٣:١.

٣٥ – لم نجد الحديث في صحيح مسلم، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٢٣:١، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون كلهم.

٣٦ – الحديث رواه الدارمي في سننه، ٧٥:١، في المقدمة، من هاب الفتيا، و٨٢:١، في المقدمة، في فضل العلم والعالم.

٣٧ – الحديث رواه الترمذي، ٣٢٤:٧، في العلم، ما جاء في فضل الفقه على العبادة، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه. ورواه ابن ماجة، ٨١:١، في العلم، باب فضل العلماء والحثّ على طلب العلم. ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم، ٢٦:١. والهيثمي في مجمع الزوائد، ١٢١:١. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط.

٣٨ – في أ : يشفع لله، والتصويب من شعب الإيمان، ٣٣٧:٤.

٣٩ – الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، ٣٣٧:٤، عن عثمان بن عفان مرفوعاً. وابن ماجة، ١٤٤٣:٢. في الزهد برقم ٤٣١٣. وابن عدي في الكامل، ١٩٠١:٥. والعقيلي في الضعفاء، ٣٦٧:٣. والآجري في أخلاق العلماء، ص ٥٩. وابن عبد البر في جامع بيان العلم، ٣٠:١. وقال الألباني موضوع، انظر ضعيف الجامع: حديث رقم ٦٤٤٥. وأورده القرطبي في تفسيره، ٢٩٩:١٧.

٤٠ – في أ : أكرم المرتبة.

٤١ – هذا القول في تفسير القرطبي، ٣٠٠:١٧.

٤٢ – انظر في حكم «ثمّ»، الجنى الداني، ص ٤٢٧ وما بعدها. ومغني اللبيب، ١٢٧:١.

٤٣ – الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٣٠٥:٤، برقم ١٥٤٨، عن عبد الله بن مسعود. وأخرجه الدارمي، ٧٢:١ في المقدمة. والحاكم في المستدرك، ٣٣٣:٤. والطيالسي في مسنده، ص ٥٣. والبيهقي في السنن الكبرى، ٢٠٨:٦. وابن عبد البر في جامع بيان العلم، ١٥٤:١.

٤٤ – الحديث رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٢٩٤:١٣.

٤٥ – الحديث رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٥٤٢:٨. ورواه الدارمي في سننه، ٨٠:١، في المقدمة.

٤٦ – الحديث رواه الدارمي في سننه، ٧٠:١، في المقدمة، برقم ٢٦٥.

٤٧ – الحديث رواه الديلمي في فردوس الأخبار، ٢٨٠:١. ورواه السيوطي في الجامع الصغير، ٤٣٧:٢. وعزاه لابن عساكر. قال في فيض القدير: ٤٣٧:٢ «فيه مجاشع بن عمرو، وقال ابن معين: أحد الكذابين. وقال البخاري: منكر مجهول. وأورد له في الميزان، ٤٣٦:٢ هذا الخبر، ثم قال: وهذا موضوع». وورد في تنزيه الشريعة، ٢٧٦:١. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١٤٨:٢.

٤٨ – كلمة «حينئذ» ساقطة من ب.

٤٩ – في أ: علمائهم. والتصويب من ب، ومن فردوس الأخبار.

٥٠ – انظر: فردوس الأخبار، ٢٨٠:١.

٥١ – في أ : حاوي، وهو تحريف واضح، والمثبت من ب. ومن هدية العارفين، ١٧٥:٢.

٥٢ – في أ : لابن الملقن، وهو تحريف واضح، والمثبت من ب، وابن الميلق هو محمد بن عبد

الدائم بن محمد بن سلامة الشاذلي. الشهير بابن بنت الميلق، أبو المعالي (- ٧٩٧ هـ)، واعظ من القضاة بمصر، ولاّه الظاهر برقوق القضاء، وعزل بعد فتنة منطاش، وأهين، له كتاب حادي القلوب إلى لقاء المحبوب وغيره. هدية العارفين، ٢:‏١٧٥. الدرر الكامنة، ٣:‏٤٩٤.

٥٣ - ساقط من أ، والمثبت من ب.

٥٤ - في أ : قاله، وهو تحريف واضح، والمثبت من ب.

٥٥ - لم نهتد إلى قائل الأبيات.

٥٦ - في أ : وقال بعض الحكماء والمثبت من ب.

٥٧ - هذا الأثر ورد في فردوس الأخبار، ٣:‏٩٧. قال في فيض القدير، ٤:‏٣٨٩. قال المناوي: هو مع إرساله ضعيف، إذ فيه سوار ابن عبد الله بن العنبري، وأورده الذهبي في الضعفاء، ورواه أبو الشيخ في الثواب عن أنس، وكذا أبو نعيم في الحلية عن أنس بسند ضعيف. ورواه القضاعي في مسند الشهاب، ١:‏١٢٢. والذهبي في ميزان الاعتدال، ٤:‏١٠ في ترجمة محمد بن فوز بن عبد الله بن مهدي، وقال: حديث موضوع على الطنافسي، فالآفة هذا أو شيخه.

٥٨ - قوله: «رضي الله عنه، وأعاد علينا بركاته» ساقط من أ، والزيادة من ب.

٥٩ - قول الشافعي أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم، ص ٢٥. وبلفظ: الصلاة النافلة.

٦٠ - في أ : يستدل، والتصويب من ب.

٦١ - من قوله «وقال آخر» إلى نهاية البيت الثاني. ساقط من أ، والزيادة من ب. هذا وجاء في الظرائف واللطائف، ص ٣١: قال علي رضي الله عنه: «كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نسب إليه». وفي جامع بيان العلم: «من شرف العلم وفضله أن كلّ من نُسب إليه فرح بذلك، وإن لم يكن من أهله، وكل من دفع عنه ونسب إلى الجهل عزّ عليه ونال ذلك من نفسه، وإن كان جاهلاً».

٦٢ - في أ : وقال الزبير بن أبي بكر كتب إليّ أبي من العراق، وفي ب: وقال ابن الزبير: إن أبا بكر كتب إليّ وأنا بالعراق، وكله وهم، والتصويب من جامع بيان العلم، ص ٥٨.

٦٣ - قال في محاضرات الأدباء، ١:‏٣: «قيل: الأدب يجلب الجمال ويفيد المال»، وقيل: «من لم يفد بالأدب مالاً، استفاد به جمالاً»، وفي جامع بيان العلم، ص ٦٠: «أخبرنا مصعب بن عبد الله قال: قال لنا أبي: اطلبوا العلم، فإن لم يكن لك مال أجداك جمالاً، وإن لم يكن لك مال أكسبك مالاً».

٦٤ - في ب : مبلغ قوم.

٦٥ - الأبيات منسوبة للطغرائي، ولم أجدها في ديوانه المطبوع، وأورد ابن عبد البر في جامع بيان العلم، ١:‏٥٩، البيتين الأول والثاني، دون نسبة.

٦٦ - لم نهتد إلى قائل الأبيات.

٦٧ - هو محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (- ٣٨٦ هـ)، واعظ زاهد، فقيه، من أهل الجبل بين بغداد وواسط، نشأ واشتهر بمكة، اتهم بالاعتزال في البصرة، ثم سكن بغداد فوعظ فيها فحفظ الناس أقوالاً هجروه من أجلها. له كتاب قوت القلوب في التصوف، وأربعون حديثاً، وغيرها. ترجمته في: وفيات الأعيان، ١:‏٤٩١، ميزان الاعتدال، ٣:‏١٠٧، لسان الميزان، ٥:‏٣٠٠.

٦٨ - سورة النحل : ٤٣.

٦٩ - هو سهل بن عبد الله بن يوسف التستري، أبو محمد (- ٢٨٣ هـ)، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات، وعيوب الأفعال. له كتاب في تفسير القرآن، وكتاب رقائق المحبين، وغير ذلك. ترجمته في: طبقات الصوفية،

ص ٢٠٦، وحلية الأولياء، ١٠:١٨٩.

٧٠ – في أ : وقال رضي الله عنه، والزيادة من ب.

٧١ – هو محمد بن أحمد بن علي بن عبد الخالق الأسيوطي، شمس الدين (– ٨٨٠ هـ)، فقيه أديب، ولد بأسيوط ونشأ بها، وجاور بمكة مدة، واستقر بالقاهرة، من آثاره: جواهر العقود ومعين القضاة والشهود، وتحفة الظرفاء، وهداية السالك إلى أوضح المسالك. ترجمته في الضوء اللامع، ٧:١٣.

٧٢ – في أ : نجد، والزيادة من ب.

٧٣ – في أ : ما ضرّ الضحى. والزيادة من ب.

٧٤ – لم نهتد إلى قائل هذه الأبيات.

٧٥ – هذا الأثر في العقد الفريد، ١:٢٦٥، ضمن حديث طويل، قاله الإمام علي لكميل النخعي، وأورده في اللطائف والظرائف، ص ٣٠، غير معزو، وبنقص الجزء الأخير منه، وفي جامع بيان العلم، ١:٥٧.

٧٦ – هذا الأثر رواه الديلمي في فردوس الأخبار، ٢:٣٠٧، عن ابن عباس، على أنه حديث للرسول صلى الله عليه وسلم، ورواه السيوطي في الجامع الصغير وعزاه للديلمي، ولابن عساكر، وورد في فيض القدير، ٣:٥٠٠، قال عنه الألباني في ضعيف الجامع، ٣:١٤٢ «موضوع». وفي تفسير القرطبي: ١٧:٣٠٠ منسوب لابن عباس، وهو الصحيح.

٧٧ – ساقطة من أ، والزيادة من ب.

٧٨ – في أ : إنما، والمثبت من مجمع الزوائد، ١٠:٢٣٥، ومن ب.

٧٩ – هذا الأثر أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠:٢٣٥، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الثلاثة، ورجاله موثقون.

٨٠ – هذا القول أورده المقدسي في اللطائف والظرائف، ص ٣٨، وعزاه فيه لبزرجمهر، وجاء فيه بلفظ «الأدب» مكان «العلم».

٨١ – في أ ، ب : فاكتف، والمثبت من جامع بيان العلم، ص ٤٩.

٨٢ – في أ ، ب : غنم، والتصويب من جامع بيان العلم، ص ٤٩.

٨٣ – في أ ، ب : غاب، والتصويب من جامع بيان العلم، ص ٤٩.

٨٤ – الأبيات أوردها ابن عبد البر في جامع بيان العلم، ص ٤٩، ونسبها إلى أحمد بن عمر ابن عبد الله بن عصفور من أبيات.

٨٥ – في أ ، ب : عثمان بن أبي شيبة، وهذا غير صحيح؛ لأن عثمان بن أبي شيبة توفي سنة ٢٣٩ هـ، ووكيع توفي سنة ٣٠٦ هـ، فلا يمكن أن يكون قد سمع وكيعاً، والأرجح ما أثبتناه.

٨٦ – هو محمد بن عثمان بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، العبسي، أبو جعفر (– ٢٩٧ هـ)، مؤرخ لرجال الحديث، من الحفاظ؛ مختلف في توثيقه، له تآليف مفيدة، منها تاريخ كبير، ترجمته في: ميزان الاعتدال، ٣:١٠١، تاريخ بغداد، ٣:٤٢.

٨٧ – هو محمد بن خلف بن حيان بن صدقة ابن زياد الضبي، المعروف بوكيع، أبو بكر (– ٣٠٦ هـ)، فقيه قارىء، نحوي، عارف بالسير، وأيام الناس وأخبارهم، له كتاب الطريق، وكتاب في أخبار القضاة وغيرها. ترجمته في: البداية والنهاية، ١١:١٣٠، والوافي بالوفيات، ٣:٤٣.

٨٨ – هذا القول حديث للرسول صلى الله عليه وسلم، رواه الحاكم في المستدرك، ١:٩٢، والقضاعي في الشهاب، ١:٢١٢، والبزار، ١:١٦٣، والدارمي، ١:٩٦، في المقدمة، في فضل العلم والعالم، والسيوطي في الجامع الصغير. قال في فيض القدير، ٦:٢٤٥، قال ابن عدي: محمد بن يزيد أحد رجاله ضعيف، قال الألباني في صحيح الجامع، ٥:٣٧٤: «صحيح».

٨٩ – سورة فاطر: ٢٨.

٩٠ – سورة العلق: ٦ – ٧.

٩١ – في ب : كلمة «ما» ساقطة.
٩٢ – هو الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
٩٣ – في أ، ب : الفخر، والمثبت من ديوانه.
٩٤ – الأبيات في ديوانه: ١٧، ورواهما ابن عبد البر في جامع بيان العلم، ص ٤٨.
٩٥ – في أ : الحصين بن الفضيل، والمثبت من ب، وهو الحسين بن الفضل بن عمير البجلي (– ٢٨٢ هـ)، مفسر، معمر، كان رأساً في معاني القرآن، أصله من الكوفة، وانتقل إلى نيسابور، فأنزله واليها عبد الله بن طاهر في دار اشتراها له، فأقام فيها يعلم الناس ٦٥ سنة. ترجمته في لسان الميزان، ٣٠٧:٢.
٩٦ – سورة يونس: ٢٩.
٩٧ – سورة الأحقاف : ١١.
٩٨ – هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا (– ٢٥٨ هـ)، واعظ زاهد، لم يكن له نظير في وقته، من أهل الري، أقام ببلخ، ومات في نيسابور، له كلمات سائرة، ترجمته في: طبقات الصوفية، ص ١٠٧، وصفة الصفوة، ٧١:٤.
٩٩ – في أ : وأناتها، والمثبت من ب.
١٠٠ – في أ : في، والمثبت من ب.
١٠١ – في أ : لأمته. والمثبت من ب.
١٠٢ – ورد قوله هذا في حلية الأولياء، ٣٥٦:٦، هذا وقد جاء في سنن الدارمي، ٨٠:١ عن الحسن: «كانوا يقولون: موت العالم ثلمة في الإسلام، لا يسدّها شيء ما اختلف الليل والنهار».
١٠٣ – في أ : حسنة، والمثبت من ب.
١٠٤ – هذا الأثر أورده الديلمي في فردوس الأخبار، ٥٩:٢، ورواه أبو الشيخ في الثواب، وابن عبد البر في كتاب فضل العلم، عن معاذ، منسوباً للرسول صلى الله عليه وسلم. ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، ٥٤:١، عن عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن الحسن عن معاذ مطولاً، ثم قال: «هكذا حدثنيه أبو عبد الله عبيد بن محمد مرفوعاً بالإسناد المذكور، وهو حديث حسن جداً، لكن ليس له إسناد قوي، ورويناه من طرق شتّى موقوفاً». ومنتخب كنز العمال، ٣٥:٤، وتنزيه الشريعة، ٢٨٢:١.
١٠٥ – كلمة : قال ساقطة من ب.
١٠٦ – هذا القول أورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم، ص ٤٤، عن أبي هريرة، وأبي ذر، وفي آخره زيادة: «وقالا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا جاء الموت طالب العلم وهو على تلك الحال، مات وهو شهيد». وجاء فيه بلفظ «العاقل» مكان «العالم».
١٠٧ – في أ : القنوع. والمثبت من ب.
١٠٨ – في أ : النووي، والتصويب من ب.
١٠٩ – في أ : عمرو بن العاصي، والصواب عبد الله بن عمرو بن العاص، كما ورد في الصحيحين وغيرهما، وهو عبد الله بن عمرو بن العاص، (– ٦٥ هـ)، من قريش، صحابي من النساك، من أهل مكة، كان يكتب في الجاهلية، ويحسن السريانية، وأسلم قبل أبيه، كان كثير العبادة. ترجمته في: حلية الأولياء، ٢٨٣:١، والطبقات الكبرى، ٨:٤:٢.
١١٠ – الحديث رواه مسلم في صحيحه، ٢٠٥٨:٤، في العلم، باب رفع العلم وقبضه، والترمذي، ٣٠٣:٧، في العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، وابن ماجه، ٢٠:١، في المقدمة، باب اجتناب الرأي والقياس، والبخاري، في العلم، باب كيف يقبض العلم، والإمام أحمد في المسند، ٦٢:٢، ١٩٠.
١١١ – سورة النساء : ٦٩.

المصادر والمراجع

○ ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة

(- ٣٥هـ) المصنف في الحديث والآثار، بعناية عبد الخالق خان الأفغاني . حيدر آباد الدكن (الهند)، ١٣٨٦ هـ.

○ ابن أم قاسم، الحسن بن قاسم بن عبد الله المرادي (- ٧٤٩ هـ) . الجنى الداني . تح. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل . حلب : المكتبة العربية، ١٣٩٣ هـ.

○ ابن تغري بردي، يوسف بن تغر بردي بن عبد الله (- ٨٧٤ هـ). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة: دار الكتب المصرية ، ١٣٧٥ هـ.

○ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (- ٥٩٧ هـ) . صفة الصفوة . حيدر آباد الدكن (الهند)، ١٣٥٥ هـ.

○ ابن حجر، أحمد بن محمد بن حجر العسقلاني (- ٨٥٢ هـ) . الإصابة في تمييز الصحابة . القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٨ هـ.

○ ابن حجر، أحمد بن محمد بن حجر العسقلاني (- ٨٥٢ هـ). تهذيب التهذيب . حيدر آباد الدكن، ١٣٢٥ هـ.

○ ابن حجر، أحمد بن محمد بن حجر العسقلاني (- ٨٥٢ هـ) . لسان الميزان . ـ ط ٢ . بيروت : مؤسسة الأعظمي، ١٩٧١.

○ ابن حنبل، أحمد بن محمد (- ٢٤١ هـ) . المسند . بيروت : المكتب الإسلامي ودار صادر، ١٣٨٩ هـ.

○ ابن خلكان، أحمد بن محمد (- ٦٨١ هـ) . وفيات الأعيان . القاهرة ، ١٣١٠ هـ.

○ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (- ٢٣٠ هـ) . الطبقات الكبرى . ليدن، ١٣٢١ هـ.

○ ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد (- ٤٦٣ هـ) . جامع بيان العلم وفضله . تح. أبي الأشبال الزهيري، ط٢ . االرياض : دار ابن الجوزي، ١٤١٦ هـ.

○ ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد (- ٤٦٣ هـ) . جامع بيان العلم وفضله . القاهرة : إدارة الطباعة المنيرية.

○ ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه (- ٣٢٨ هـ) . العقد الفريد . شرح أحمد أمين ورفقائه . بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٠٦ هـ.

○ ابن عدي، عبد الله بن عدي بن عبد الله (- ٣٦٥ هـ).الكامل في الضعفاء . بيروت : المكتب الإسلامي

○ ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله (- ٧٦٩ هـ) . شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . تح. محيي الدين عبد الحميد . ـ ط ٢ . القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى.

○ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري (- ١٠٨٩ هـ) . شذرات الذهب . القاهرة.

○ ابن كثير، إسماعيل بن عمر (- ٧٧٤ هـ) . البداية والنهاية .القاهرة ، ١٣٥١ هـ.

○ ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني (- ٢٧٣ هـ) . سنن ابن ماجة . تح. محمد فؤاد عبد الباقي . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٢ هـ.

○ ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد الأنصاري (- ٧٦١ هـ) . أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك . تح. محيي الدين عبد الحميد . ـ ط ٤ . القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٥ هـ.

○ ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد الأنصاري (- ٧٦١ هـ) . مغني اللبيب . تح. د. مازن المبارك ورفيقه . دمشق : دار الفكر، ١٣٨٤ هـ.

○ أبو حيان النحوي، محمد بن يوسف بن علي (- ٧٤٥ هـ) . البحر المحيط . ـ ط ٢ . بيروت : دار الفكر، ١٤٠٣ هـ.

○ أبو داود، سليمان بن الأشعث (- ٢٧٥ هـ) . سنن أبي داود. إعداد عزت عبيد الدعاس ورفيقه . بيروت : دار الكتب العلمية، ١٣٨٩ هـ.

○ أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين بن محمد (- ٣٥٦ هـ) . الأغاني . القاهرة : ساسي، ١٣٢٣ هـ.

○ أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (- ١٠٣١ هـ) . حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٠٠ هـ.

○ الالباني، محمد ناصر الدين. صحيح الجامع الصغير. بيروت: المكتب الاسلامي.

○ الألباني، محمد ناصر الدين . ضعيف الجامع الصغير . بيروت : المكتب الإسلامي.

○ الإمام علي بن أبي طالب (- ٤٠ هـ) . ديوان الإمام علي . بيروت.

○ الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (- ٢٦١ هـ) . الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم . تح. محمد فؤاد عبد الباقي . القاهرة : دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٥ هـ.

○ البخاري، محمد بن إسماعيل (- ٢٥٦ هـ) . الجامع الصحيح، المسمى صحيح البخاري . القاهرة : مكتبة محمود توفيق الكتبي، ١٣٥٢ هـ.

○ البزار، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق (- ٢٩٢) . مسند البزار . بيروت.
○ البغدادي، إسماعيل باشا (- ١٣٣٩ هـ) . هدية العارفين . بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ.
○ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (- ٤٥٨ هـ) . السنن الكبرى . حيدر آباد الدكن (الهند) : دائرة المعارف النظامية، ١٣٤٤ هـ.
○ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (- ٤٥٨ هـ) . شعب الإيمان . تح. حبيب الرحمن الأعظمي . بيروت.
○ الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (- ٢٧٩ هـ) سنن الترمذي، بإشراف عزت عبيد الدعاس . حمص : دار الدعوة، ١٩٦٨ م.
○ الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري (- ٤٠٥ هـ) . المستدرك على الصحيحين . الرياض : مكتبة النصر الحديثة. د. ت.
○ الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (- ٤٦٣ هـ) . تاريخ بغداد . القاهرة، ١٣٤٩ هـ.
○ الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (- ٤٦٣ هـ) . الفقيه والمتفقه . ـ ط ٢ . القاهرة، ١٣٨٩ هـ.
○ الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (- ٢٥٥ هـ) . سنن الدارمي . تح. السيد عبد الله هاشم اليماني . المدينة المنورة، ١٣٨٦ هـ.
○ الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرويه (- ٥٠٩ هـ) فردوس الأخبار . تح. فواز الزمرلي ورفيقه . بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ.
○ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (- ٧٤٨ هـ) . تذكرة الحفاظ . حيدر آباد الدكن (الهند)، ١٣٣٣ هـ.
○ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (- ٧٤٨ هـ) . ميزان الاعتدال . تح. علي محمد البجاوي . القاهرة : مكتبة عيسى البابي الحلبي.
○ الراغب الأصبهاني، حسين بن محمد بن المفضل (- ٥٠٢ هـ) . محاضرات الأدباء . بيروت.
○ الزركلي، خير الدين (- ١٣٩٦ هـ) . الأعلام . ـ ط ٥ . بيروت : دار العلم للملايين.
○ الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد (- ٥٣٨ هـ) . الكشاف . بيروت : دار المعرفة . د. ت.
○ السلمي، محمد بن الحسين بن محمد (-٤١٢ هـ). طبقات الصوفية . القاهرة : ١٣٧٢ هـ.
○ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (- ٩١١ هـ) . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . القاهرة، ١٣٢٦ هـ.
○ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (- ٩١١ هـ) . الجامع الصغير . القاهرة، مصطفى البابي الحلبي.
○ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (- ٩١١ هـ) . حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . القاهرة : ١٢٩٩ هـ.
○ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (- ١٢٥٠ هـ) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . القاهرة : ١٣٤٨ هـ.
○ الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب (- ٣٦٠ هـ) الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني . تح. محمد شكور محمود الميداني . بيروت : المكتب الإسلامي . عمان : دار عمار، ١٤٠٥ هـ.
○ الطبري، محمد بن جرير بن يزيد (- ٣١٠ هـ) . ذيل المذيل في تاريخ الصحابة والتابعين . القاهرة، ١٣٢٦ هـ.
○ الطيالسي، سليمان بن داود بن الجارود (- ٢٠٤ هـ) . مسند الطيالسي . بيروت : دار المعرفة.
○ عبد الباقي، محمد فؤاد . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن . بيروت : دار إحياء التراث العربي.
○ العكبري، عبد الله بن الحسين بن عبد الله (- ٦١٦ هـ) . إملاء ما منّ به الرحمن . بيروت.
○ القرشي، عبد القادر بن محمد بن نصر الله (- ٧٧٥ هـ) . الجواهر المضية في طبقات الحنفية . حيدر آباد الدكن (الهند)، ١٣٣٢ هـ.
○ القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (- ٦٧١ هـ) الجامع لأحكام القرآن . دار الكتب المصرية، ١٣٥٣ هـ.
○ القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر (- ٤٥٤ هـ) . الشهاب في الحكم والآداب . بعناية محمود أفندي الشابندر . بغداد، ١٣٢٧ هـ.
○ المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي (- ١٠٣١ هـ) . فيض القدير شرح الجامع الصغير . القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٦ هـ.
○ نصيب بن رباح، أبو محجن (- ١٠٨ هـ) . شعر نصيب . تح. داود سلوم . بغداد.
○ الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان (- ٨٠٧ هـ). مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . القاهرة : مكتبة القدسي، ١٣٥٢ هـ.
○ ونسنك، د. أ. ي. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ليدن : بريل، ١٩٤٣ م.
○ ياقوت الحموي بن عبد الله الرومي (- ٦٢٦ هـ). إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب . معجم الأدباء . القاهرة : مرجليوث، ١٩٠٧ م.

نسخة قيمة من مخطوط (المعالجات البقراطية)



الدكتور مسلم الزيبق
رئيس قسم التراث العلمي
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

يحتفظ مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بنسخة قيمة من مخطوط (المعالجات البقراطية) لأبي الحسن أحمد بن محمد الطبري (رقمه ٣٩٥٧).

المؤلف

لم تذكر المصادر الكثير عن المؤلف. فقد اكتفى ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» بالإشارة إلى أنه من أهالي طبرستان، وأنه كان طبيب ركن الدولة الحسن ابن بويه(١).

ويتضح من المعلومات الواردة في الكتاب أنه عاصر علي بن العباس المجوسي، وكان تلميذاً لأبي ماهر موسى بن يوسف بن سيار(٢). ويبدو أنه قد عاش متنقلاً فيما بين الري وهمدان وأصفهان ونيسابور، ثم أصبح من الأطباء المقربين لوالي الخليفة الراضي على الأهواز، ووزيره أبا عبد الله بن محمد البريدي(٣).

ويقدر بروكلمان استناداً إلى هذه المعطيات أن سنة وفاته كانت بحدود عام ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م(٤).

مؤلفاته

إضافة إلى كتاب «المعالجات البقراطية»

الورقة الاولى من نسخة مكتبة ملك ملي - طهران (٤٤٧٤)

فإنه تنسب إلى الطبري الكتب التالية:

- رسالة في علاج الأطفال:

دانشكاه/ طهران (٥٢١٧/١٠). دار الكتب المصرية/ طلعت (٥٩٤). طهران/ سنا (٣/٢٢٥٤).

- رسالة في ذكر القارورة أو (كتاب التفسرة):

دانشكاه/ طهران (١٤٣٥). مقالة في طب العين: ورد ذكرها في فهرس بولس سباط تحت رقم (٩٢٥).

المخطوط

يقع المخطوط في أربعمائة وستين ورقة (٢٦ × ١٨ سم - ٢١ س) كتبه محمد تقي بن رفيع الدين بخط تعليق سنة ١٠٢٧ هـ، وعليه تملكات تعود إلى عام ١٠٤٢ هـ و١٠٤٥ هـ.

وتعد هذه النسخة من النسخ القليلة في العالم التي وصلتنا كاملة(٦). وهي بحالة جيدة، أصابتها الرطوبة قليلاً في حوافها، ليس عليها شروح أو تعليقات، فيما كتبت أسماء المقالات والأبواب والفصول بالحمرة.

بداية المخطوط: «الحمد لله المتفرد... وبعد: ثم إني رأيت الأوائل من أفاضل الأطباء صنفوا كنانيش ليؤدوا منفعة للناس... وأسميه المعالجات البقراطية وأجعله عشر مقالات. المقالة الأولى: في الفصول التي لا يستغني عنها الطبيب الذي ليس بفيلسوف عن معرفتها وهي خمسون باباً...».

نهاية المخطوط: «... الباب التاسع والأربعون: في أنواع القولنج... والأشبه من سائر العلاجات تفقد أدلة من الأعراض ومما يحمده، ومتى وقع لقصره في تأمل شيء من ذلك وقع بحسبه النقصان في المعالجة».

المحتوى

وصف ابن أبي أصيبعة كتاب «المعالجات

البقراطية» بأنه: «من أجل الكتب وأنفعها»(٧). ويستدل من عنوان الكتاب ومضامينه أن أحمد بن محمد الطبري كان كثير الإجلال والاعتماد على آراء (أبقراط) الطبية.

يتألف المخطوط من عشر مقالات يذكر فيها رأي الطبيب عن الأسباب السابقة والبادئة والواصلة لمعرفة جنس العلة ونوعها والأدوية الصالحة ومقدارها والأوقات التي تستعمل فيها هذه العلاجات:

- المقالة الأولى (خمسون باباً) : تبحث في صناعة الطب وحدّها طبيعياً ونفسياً، والمزاج والامتزاج، والعنصر كطينة لكل موضوع، ومعنى الكون والفساد والهيولى والصورة. كما تبحث المقالة الأولى أيضاً في أدب الطبيب والحواس والطب الروحاني، وتشير إلى أن آراء أفلاطون وأرسطو تتفق في جميع المذاهب.

- المقالة الثانية (ستة وثلاثون باباً) : وهي في الأعلال التي تحدث في جلدة الرأس والوجه مثل: داء الثعلب وداء الحية والسعفة والقوباء وانتشار الأهداب والحواجب والشيلم والشقاق.

- المقالة الثالثة (ثلاثة وأربعون باباً) : في الأعلال التي تحدث في الأعضاء الباطنية من الرأس كالصداع والسبات والكابوس والصرع والماليخوليا والرعشة والفالج.

- المقالة الرابعة (أربعة وخمسون باباً) : في أعلال العين وطبقاتها ومنافعها وخلقتها

صورة الصفحتين (١ - ٢) من نسخة مركز جمعة الماجد

صورة الصفحتين الاخيرتين من نسخة مركز جمعة الماجد

واختلاف المشرحين فيها.

- المقالة الخامسة (ثلاثة وثلاثون باباً) : في أمراض الأنف والأذنين.

- المقالة السادسة (ثمانية وخمسون باباً): في أمراض الفم والأسنان واللسان واللهاة والحلق والرقبة.

- المقالة السابعة (ستون باباً) : في أمراض الجلد.

- المقالة الثامنة (ثلاثة وثلاثون باباً) : في أعلال الصدر والرئة والغشاء والحجاب وسائر آلات التنفس والقلب وعلاجها.

- المقالة التاسعة (اثنان وخمسون باباً) : في وصف المعدة وخلقتها ومنفعتها وأجناس عللها وعلاجاتها.

- المقالة العاشرة (تسعة وأربعون باباً) : في أمراض الكبد والطحال والأمعاء وذكر خلقتها ووضعها ومنفعتها(٨).

الحواشي

١ - ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تـ نزار رضا (بيروت : دار مكتبة الحياة) ص ٤٢٧.

٢ - حمارنة ، سامي خلف (اربد : منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٦) ص ٢٤٢.

٣ - السامرائي ، كمال ، مختصر تاريخ الطب العربي (بيروت : دار النضال) ١:٤٦٩.

٤ - Brocklman G. A. L.1:375

٥ - Sezgin G.A.S.3:307

٦ - انظر سلسلة ج - عيون التراث - م٤٧ - معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية - فرانكفورت، ١٩٩٠.

٧ - عيون الأنباء، ص ٤٢٧.

٨ - تاريخ تراث العلوم الطبية، ص ٢٤٣.

مجلة روضة المدارس المصرية



الدكتور نزار أباظة

رئيس قسم الدراسات والنشر في
مركزجمعة الماجد للثقافة والتراث

● تعدّ هذه المجلة القاهرية العلمية الأدبية الفني كما وصفها بذلك مؤرخو الصحافة من أقدم مجلات الوطن العربي الثقافية العامة؛ فقد صدر عددها الأول في ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ هـ بما يوافق ٧ أبريل/ نيسان ١٨٧٠م(١) عن ديوان عموم المدارس الملكية(وزارة المعارف) بأمر مديرها العام المؤرخ العالم المشهور الوزير علي باشا مبارك (- ١٣١١ هـ = ١٨٩٣ م)(٢) أحد كبار أعلام النهضة العلمية في مصر وصاحب كتاب الخطط التوفيقية.

جعلت هذه المجلة نصف الشهرية ذات القطع المتوسط (٢٢ × ١٥ سم) وذات الصفحات التي كانت تراوح بين ست عشرة وأربع وعشرين.. جعلت شعارها بيتين تصدّرا صفحة العنوان من العدد الأول حتى الأخير:

تعلم العلم واقرأ
تحز فخار النبوة
فالله قال ليحيى
خذ الكتاب بقوة

واختار الوزير لرئاسة تحريرها الأديب العالم المعروف رفاعة الطهطاوي (- ١٢٩٠ هـ = ١٨٧٣ م)(٣) من رجالات مصر الحديثة البارزين، منشىء جريدة الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ م مؤسس مدرسة دار الألسن وناظرها مدير ديوان الترجمة في المدرسة الطبية.

وجاء في كلام الوزير مبارك يزكي الطهطاوي لرئاسة التحرير أنه: «لما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشار إليه بين أرباب المعارف بالبنان المعترف بدرجة فضله الرفيعة كل إنسان ناسب أن تجعل هذه الصحيفة تحت نظارته لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين، وينشر علمها، فيتلقاه محب المعارف باليمين»(٤).

وقد عين بوظيفة مباشر تحرير المجلة علي فهمي باشا ابن الطهطاوي (- ١٣٢١ هـ = ١٩٠٣ م)(٥) وكان يشغل منصب وكيل وزارة المعارف.

كتب الطهطاوي افتتاحية العدد الأول بعبارة مسجوعة مبيناً فيها أن أهداف المجلة ورسالتها تتلخص بتعميم العلوم وتتميم المعارف ونشر الفنون، بحيث تكون الفوائد المتنوعة والمسائل أقرب تناولاً للمطلع معروضة بعبارات سهلة غير متكلفة وخاصة بين أبناء المدارس لتتسع دائرة معقولهم ومنقولهم(٦).

ثم ذكر صراحة ابتعاد الصحيفة عن الأمور السياسية والإدارية وما شاكلها من الأفعال الرئاسية على حد تعبيره(٧).

وتولى عدد من أهل العلم المعروفين الكتابة في الصحيفة، وقد أوكل إليهم معالجة موضوعات في علوم معينة.. وهؤلاء كانوا من طبقة المثقفين الأولى في مصر، منهم الوزير مبارك نفسه وعبد الله فكري باشا (- ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٩ م)(٨) والمسيو هنري بروكش مدير مدرسة اللسان المصري القديم، وإسماعيل الفلكي (- ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م)(٩) ومحمد قدري (- ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ م)(١٠)، وأحمد ندا (- ١٢٩٤ هـ = ١٨٧٧ م)(١١)، وعلي فهمي باشا مباشر التحرير، وصالح مجدي وكيل المدارس، والشيخ حسونة النواوي شيخ الأزهر (- ١٣٤٣ هـ = ١٩٢٥ م)(١٢)، وتادرس وهبي (- ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م)(١٣)، ومحمد دياب (- ١٣٣٩ هـ = ١٩٢١ م)(١٤)، ومحمد حافظ، ومنصور أحمد أستاذ الكيمياء والطبيعيات بمدرسة المهند سخانة، وحسين المرصفي (- ١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ م)(١٥) مدرس علوم الأدب في دار العلوم. كما شارك مدرسون بارزون وطلاب متفوقون.

وأسهم رفاعة الطهطاوي كذلك في مقالات عديدة منذ السنة الأولى، حين بدأ الكتابة

بمقال عنوانه «في اسمه تعالى المصور واتصافه به حقيقة، واتصاف غيره به مجازاً»(١٦). ثم تتالت كتابته(١٧). وآخر مقال له كان بمناسبة حضور الخديوي ديوان المعارف وتوزيع المكافآت(١٨).

وقد أمد هؤلاء العلماء وأهل الثقافة المجلة بكتاباتهم الجادة المتنوعة في التاريخ والقصص والأدب شعره ونثره وخطبه ورواياته والاجتماع والجغرافية وعلم الكلام والتربية والصحة والرياضيات والأحياء والكيمياء والزراعة وغيرها من العلوم.

وكتب بعض الأجانب مقالات ترجمها مدرسو الفرنسية والإنكليزية كما لخصت دروس كثيرة كانت تلقى بدار العلوم.

ولكي تأخذ المجلة حظها من المرح إلى جانب ثقل المواد العلمية وجفاف بعضها فقد أوكل إلى عثمان مدوخ إيراد الغرائب والنوادر والألغاز والمضحكات.

ويكثر في المجلة شعر المدح الذي قيل في تهنئة الخديوي وأنجاله وحاشيته خلال المناسبات المتعددة.. وكذلك الخطب التي كانت تلقى بمناسبة الامتحانات.

وبالإضافة إلى هذا فقد دأبت الصحيفة كما كان أصحابها يسمونها ومنذ العدد الأول على نشر كتب ألفت لها وقسم كل كتاب منها إلى فصول نشرت بالتتابع على أعداد متفرقة، ككتاب «آثار الأفكار ومنثور الأزهار»(١٩) لعبد الله فكري، وكتاب «الصحة التامة والمنحة العامة»(٢٠) لمحمد بدر و«مطالع البدور في تطبيق الكسور»(٢١) لعبد الحميد ثابت وغير ذلك كثير من الكتب المنوعة الموضوعات.

وجرت المجلة على أسلوب معين في

(نمرة ١) يوم السبت ١٥ محرم سنة ١٢٨٧ الموافق ٩ برمودة سنة ١٥٨٦ (سنة أولى)



روضة المدارس المصرية

تعلم العلم واقرأ * تحز فخار النبوة
فالله قال ليحيى * خذ الكتاب بقوة

تحت نظارة
ديوان عموم المدارس الملكية

مباشر تحريرها
علي فهمي بك نجل رفاعه بك

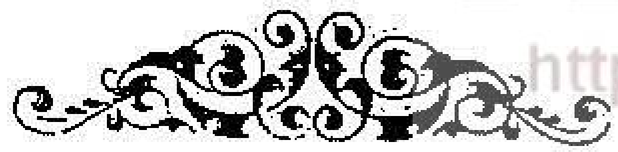
تظهر في الاسبوع مرة واحدة
وثمن ترتيبها عن سنة واحدة ... مصري

الثمن يدفع	بالقاهرة	٦ ٧٧	سلفا
	بالديار المصريه	٨٢	
	بالخارج	٩٠	

بمطبعة جرنال وادي النيل
بالقاهرة المحروسة بالموسكي

صورة عن غلاف المجلة للعدد الاول

روضة (٢) المدارس



بسم الله الرحمن الرحيم

ان أشرق ما تحلت به صفحات الطروس الزاهره من فرائد الآثار وتريضت به روائض النفوس الطاهره من فوائد الاخبار فاتحة الحمد الموسوقة بالاخلاص لفالق إصباح الموجودات وماضة السعد المرموقة بعين الاستخلاص لخالق مصباح الكائنات يتلوها أكمل صلاة وأجمل سلام وأبهى تحية وأبهج اكرام على حضرة منبع الاسرار القدسيه ومطلع الانوار المعنوية والحسيه المنعوت بجوامع الكلم ولوامع الحكم السائرة في جميع الآفاق المخصوص بأحاسن النعم ومحاسن الشيم المتممة لمكارم الاخلاق وعلى آله وأصحابه فروع شجرة العلوم والفنون الباسقة الافنان وفراقد سماء رسالته أعيان السادات وسادات الاعيان وبعد فمن المعلوم لدى كل فاضل مطلع على فوائد كتب الآثار التاريخيه ومتضلع من النظر في استكشاف أحوال أخبارها وله فيما تقدم الازمان الماضيه وكل أريب أكسبته ملكة التجارب صحة الانتقاد ولبيب حكم له حاكم العقل بمزية الانفراد ان مصر في هذا العصر المتكفل بسمو درجتها وتوجيهها وتقويم صعدتها وتمكين نجدتها حتى صارت مباهيه لغيرها من سائر الممالك مهتدية بأنوار المعارف الى أعظم المسالك فقد اهتدى فيها كل سار بنور نار قراه وجد في مبدأ الغاية عاقبة سراه وزال فتور الهمة السابقه بتعزيز وفور النعمة اللاحقه وتنافس المتنافسون في اكتساب العلوم والفنون وولع كل ذي همة سباقه ونفس تائقة مشتاقه باستخراج نفيس جوهرها المكنون وشتان بين اللاهي والمتذكر والساهي والمتفكر والمهتدي والتائه المتحير والمظلم الحالك والمشرق النير وما يستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما هذا السعي الناجح والعمل الصالح

صورة الصفحة الاولى من افتتاحية العدد الاول

مقالاتها، هو أسلوب العصر الذي لم يتخلص تمام التخلص من التكلف في الصياغة، فكانت تقدم للمقالات بمقدمات متكلفة تبين مضامينها أو تثني بها على كتابها.

على أن لغة المجلة عموماً لغة عربية سليمة فصيحة اعتني بها، ولم تخالف هذه السيرة إلا في رواية تمثيلية واحدة كانت بعنوان «الفخ المنصوب للحكيم المغصوب» التي ألفها بالعامية محمد عثمان(٢٣) ولقيت مجلة روضة المدارس إقبالاً شديداً من الطلاب على قراءتها والكتابة فيها، مما حمل الديوان على إصدار أمره «ألا ينشغلوا بموادها وقت الدروس ولا يشتغلوا بالكتابة فيها إلا خارج المدرسة»(٢٤).

وكانت المجلة تطبع ٣٥٠ نسخة من كل عدد زيدت إلى ٧٠٠ نسخة فيما بعد(٢٥). ولحرص الديوان على نشرها وتعميم فوائدها فقد أخذ يرسل أعدادها إلى المدارس يحث المدرسين على شرائها ثم صدر تعميم بلزوم أن يشتريها جميع موظفي ديوان المدارس والمكاتب الأهلية المقتدرين. كما كانت ترسل أعداد منها إلى أعيان البلاد ليتولوا توزيعها بمعرفتهم(٢٦).

ولما توفي رفاعة الطهطاوي وكان آخر عدد ظهر عليه اسمه هو العدد السادس من السنة الرابعة الصادر يوم الاثنين غاية ربيع الأول سنة ١٢٩٠ آلت رئاسة تحريرها إلى ابنه علي فهمي رفاعة، وبقي على رئاستها حتى توقفت عن الصدور مع العدد الخامس عشر الصادر في ١٥ شعبان ١٢٩٤ الموافق أغسطس ١٨٧٧ بعد أن عمرت ثماني سنوات.

ولم تكن مجلة المدارس المصرية كالصحف والمجلات التي سبقتها؛ فلا هي رسمية سياسية إدارية تعنى بقرارات الدولة وخطط الحكومة وأخبارها مثل جورنال الخديوي(١٨١٣) والوقائع المصرية (١٨٢٨)، وليست متخصصة بموضوع معين كصحيفة أعمال الري (١٨٥٥) ويعسوب الطب (١٨٦٥). كما أنها غير خاصة كجريدة وادي النيل لعبد الله أبي السعود (١٨٦٦)..

إنها بداية المجلات الثقافية العامة التي أنشأتها الدولة استكمالاً لرعايتها العلم والثقافة، واهتمامها بها.. ولذا فقد ساعد الخديوي إسماعيل نفسه على انتشارها ودعمها..(٢٧).

ولعلها من هذا الباب تعد المجلة الثقافية الرائدة التي تخاطب عموم المثقفين وتحكي حال الثقافة المصرية في بدايات عصر النهضة الحديثة.. مع أنها تحمل اسم الطلاب.. والبون شاسع بين مجلات طلاب اليوم وأشباهها وهذه المجلة.

ولذا فيجدر بنا تتميماً للصورة أن ننتقي بعض عنوانات من أبحاثها انتقاءً عشوائياً لنتعرف مدى ما وصلت إليه.. واخترنا لذلك أعداد السنوات الأولى والثالثة والسابعة.. ومن هذه المقالات التي سنوردها ما هو موزع على أكثر من عدد واحد لاتساع موضوعه.

- مبحث في حد العقل وشرفه(٢٨) للشيخ سليم شيخ جامع القلعة.
- مبحث في معرفة مقدار الذراع الشرعي بالنسبة لباقي الأقيسة(٢٩) لإسماعيل محمد.
- ترجمة كسرى أنو شروان(٣٠) لعلي فهمي رفاعة.
- نبذة في منافع الفحم ومضاره(٣١) لمنصور أحمد.
- الهواء الجوي(٣٢) لعلي الدرنده لي.
- جدول تاريخ مشاهير قدماء ملوك المصريين (٣٣) للمسيو بروكش، تعريب حسين زكي.
- حكاية مترجمة من الفرنساوية(٣٤) لمحمد عصمت.
- ملخص تاريخ قدماء اليونان(٣٥) ترجمة

محمد توفيق.
- تاريخ الأخلاق والعوائد(٣٦) ترجمة محمد منجي.
- إعجاز القرآن الشريف(٣٧) لعلي محمد الببلاوي.
- نبذة تاريخية تتعلق بالممالك الألمانية(٣٨) نقلاً عن جريدة الجنان اللبنانية.
- الكلام على الورق(٣٩) ليوسف صلاح الدين.
- ارتياد السعر في انتقاد الشعر(٤٠) لمحمد سعيد جعفر.
- القول الوجيز في تاريخ الإنكليز(٤١) تعريب تادرس وهبي.

هذه هي مجلة روضة المدارس المصرية حملت رسالة واضحة منذ البداية، تميزت بها وخدمت جيلاً من الطلاب كان لهم فيما يبدو ثقافة ذات شأن لغناها واتساعها.. وكان منهم الجيل الذي تولى مقاليد الأمور من بعد.

ويظهر أن اسم المجلة بقي حياً في النفوس بعد توقفها وظلت ذكرى حسنة يرددها المثقفون.. فحاولت امرأة تدعى مسز بري أن تحييها مرة أخرى فأنشئت مجلة شهرية باسمها تماماً في عام ١٩١٥(٤٢) ولكنها كانت صدى ما لبث أن ضاع بين صخور الوادي الخصب.

الحواشي

١ - وقد استعملت المجلة التقويمين الهجري والقبطي، فكان عددها الأول في ٩ برمودة (الشهر القبطي الثامن) سنة ١٥٨٦. انظر موسوعة القرن العشرين لوجدي، ٧: ٦٢٠.

٢ - انظر لترجمته: مشاهير الشرق، ٢: ٣٣. البعثات العلمية، ص ٢٣٧ . معجم المطبوعات، ص ١٣٦٧ . زعماء الإصلاح، ص ١٨٤ . أعلام البحرية والجيش، ١: ١٠٣. تاريخ مصر في عهد إسماعيل، ٢: ١٧٢ - ١٩٧. الأعلام، ٤: ٣٢٢ . مجلة الهلال، مج٢، ج١٠.

٣ - انظر لترجمته: الخطط التوفيقية، ١٣: ٥٣ البعثات العلمية، ص ٤٦ . الثغر الباسم، ص ٤٦ . أعيان البيان، ص ٩٠ . آداب زيدان، ٤: ٢٩٦ . حركة الترجمة بمصر، ص ٥٢ . مجلة الهلال، مج٣، ج٢ . معجم المطبوعات، ص ٩٤٢ . الفهرس التمهيدي، ص ٣٩٥ . بناء دولة، ص ١٧٦ . الأعلام، ٣: ٢٩.

٤ - مجلة روضة المدارس، س١، ع٢، ص٢.

٥ - انظر لترجمته الثغر الباسم، ص ٤٦ . معجم المطبوعات، ص ١٣٦٥ - ١٣٦٦ . فهرس التيمورية، ٣: ١١٣ . الأعلام، ٤: ٣٢٠.

٦ - روضة المدارس، س١، ع١، الافتتاحية.

٧ - المصدر السابق.

٨ - عبد الله فكري: وزير المعارف سنة ١٢٩٩ هـ أحد المتأدبين، تعلم في الأزهر، اتهم بالاشتراك مع عرابي في ثورته فسجن. اختير سنة ١٨٨٩ م رئيساً للوفد العلمي المصري في مؤتمر استوكهولم. له عدد من المؤلفات وديوان شعر صغير. أجاد التركية والفرنسية مع العربية (انظر: المقتطف، ١٥: ٩ . خطط مبارك، ٢: ٤٦ . آداب زيدان، ٤: ٢٤١ . في الأدب الحديث، ١: ١٢٥ . الأعلام، ٤: ١١٣).

٩ - إسماعيل بن مصطفى الفلكي من علماء الرياضيات، تركي الأصل، ولد وتعلم في القاهرة وأتمّ دراسته في باريس ونبغ في الفلك فعهد إليه الخديوي توفيق إنشاء مرصد العباسية في القاهرة وتنظيم مدرسة الهندسة. له كتب كثيرة (انظر: آداب زيدان، ٤: ٢١٤ . البعثات العلمية، ص ٤٥٥ . الأعلام، ١: ٣٢٧).

١٠ - محمد قدري باشا من رجال القضاء في مصر ولد بها وأصل أبيه من الأناضول وأمه مصرية حسنية تعلم بمصر ودخل مدرسة الألسن ونبغ في اللغات. اختاره الخديوي مربياً لولي عهده وتقلب في المناصب فكان وزيراً للعدل ثم وزيراً للمعارف ثم رجع للعدل آخر مناصبه. له كتب تأليفاً وترجمة (انظر

المقتطف، ٤٨: ٢٥٣ - ٢٦٣ . إيضاح المكنون، ١:٣٥ . معجم المطبوعات، ص ١٤٩٥ . الأعلام، ٧:١٠).

١١ - أحمد ندا : صيدلي عالم مصري المولد والوفاة تعلم في القصر العيني وباريس وعيّن أستاذاً للتاريخ الطبيعي. له تصانيف وترجمة عن الفرنسية (انظر: آداب زيدان، ٤:١٩٧ . حركة الترجمة بمصر، ص ١٠٢ . البعثات العلمية، ص ٣٤٨ . الأعلام، ١:٢٦٤).

١٢ - حسونة النواوي: فقيه أصله من نواي في أسيوط تعلم في الأزهر وعلّم بمدرسة الحقوق وتنقل في مناصب القضاء وولي إفتاء الديار المصرية ومشيخة الأزهر مرتين. له مؤلفات (انظر: مجلة الزهراء، ٢:٤٨٥ . كنز الجوهر، ص ١٥٦ . خطط مبارك، ١٧:١٤ . مرآة العصر، ص ١٩٠ . الأعلام، ٢:٢٢٩).

١٣ - تادرس وهبي : من أدباء القبط : تعلم في مدرسة الأرمن والمدرسة القبطية وأجاد الفرنسية والأرمنية وتعلّم الإنجليزية والإيطالية وحضر دروساً في الفقه والعربية بالأزهر. تولى نظارة مدرسة الأقباط الكبرى. له تصانيف وكتب مترجمة ونظم قصصاً تمثيلية (انظر: الأقباط في القرن العشرين، ٣:٣٤ . معجم المطبوعات، ص ١٩٢٤ . دار الكتب، ٢:٦٧، ١٠٨، ٨، ٧، ١٨٣، فهرس الأزهرية، ٤:١٩٤ الأعلام الشرقية، ٤:١٩٠ . الأعلام، ٢:٨٢).

١٤ - محمد دياب : باحث من رجال العلم والتعليم تعلم في الأزهر ودار العلوم واختير مفتشاً في ديوان المعارف. له تآليف أكثرها مدرسي (انظر: معجم المطبوعات، ص ١٦٥٣ . الأهرام، ٢:٢:١٩٢١ . المقتطف، ٥٨:٢٠٤ . الأعلام، ٦:١٢٢).

١٥ - حسين المرصفي : أديب محاضر أزهري ضرير، أقرأ بالأزهر ثم كان أستاذ الأدب العربي وتاريخه في دار العلوم. تعلم الفرنسية، له مؤلفات (انظر: آداب شيخو، ٢:٨٥ . أعلام من الشرق والغرب، ص ٦٧ - ٨١ . آداب زيدان، ٤:٢٦٥ . معجم المطبوعات، ص ١٧٣٥ . الأعلام، ٢:٢٣٢).

١٦ - روضة المدارس : س١، ع٢، ص٢.

١٧ - المصدر السابق : س١، ع٣، ١٠، ١٣، ١٧، ١٩. س٢، ع١، ١٦، س٣، ع١.

١٨ - المصدر السابق، س٣، ع٢.

١٩ - المصدر السابق، بدءاً من س١، ع٣.

٢٠ - المصدر السابق.

٢١ - المصدر السابق، بدءاً من س١، ع٤.

٢٢ - المصدر السابق، بدءاً من س٤، ع١٣.

٢٣ - المصدر السابق، س٢، ع٣.

٢٤ - تاريخ التعليم في عصر إسماعيل، ص ١٥٣.

٢٥ - المرجع السابق.

٢٦ - رفاعة الطهطاوي، ص ٧١.

٢٧ - تاريخ الصحافة العربية، ٣:٧٠.

٢٨ - روضة المدارس، س١، ع٤، ص٣.

٢٩ - المصدر السابق، س١، ع٤، ص١٤.

٣٠ - المصدر السابق، س١، ع٤، ص١٨.

٣١ - المصدر السابق، س١، ع١٤، ص١٣.

٣٢ - المصدر السابق، س٣، ع٣، ص٧.

٣٣ - المصدر السابق، س٣، ع٤، ص٨.

٣٤ - المصدر السابق، س٣، ع٩، ص٨.

٣٥ - المصدر السابق، س٣، ع١٠، ص٤.

٣٦ - المصدر السابق، س٣، ع١٢، ص١٢.

٣٧ - المصدر السابق، س٣، ع٢٢، ص١٠.

٣٨ - المصدر السابق، س٧، ع١، ص١١.

٣٩ - المصدر السابق، س٧، ع٢، ص٨.

٤٠ - المصدر السابق، س٧، ع١٧، ص١٣.

٤١ - المصدر السابق، س٧، ع١٩، ص٧.

٤٢ - دليل الصحافة العربية، ص ١٦٤.

المصادر والمراجع

أ - الكتب

- أمين، أحمد . زعماء الإصلاح في العصر

الحديث . القاهرة، ١٩٤٨.
– الأيوبي، إلياس . تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل (١ – ٢) . القاهرة، ١٣٤١ هـ.
– بدوي، أحمد أحمد . رفاعة الطهطاوي بك . القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٠.
– البغدادي، إسماعيل بن محمد . إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون (١ –٢) . إستانبول، ١٣٦٤ – ١٣٦٦ هـ.
– تاجر، جاك . حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر . القاهرة (د.ت.).
– تادرس، رمزي . الأقباط في القرن العشرين ١ – ٤ . القاهرة، ١٩١٠.
– جامعة الدول العربية، الإدارة الثقافية . الفهرس التمهيدي للمخطوطات المصورة (طبع على الإستنسل) . القاهرة ، ١٩٤٨.
– حسن، محمد عبد الغني . أعلام من الشرق والغرب . القاهرة ، ١٩٤٩.
– خوري، يوسف وشاكر، علي . مدونة الصحافة العربية (١ – ٣) . بيروت : معهد الإنماء العربي، ١٩٨٥.
– دار الكتب المصرية . فهرس الخزانة التيمورية (١ – ٣) . القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٣٦٧ هـ.
– الدسوقي، عمر . في الأدب الحديث (١ – ٢) . القاهرة ، ١٩٥٠.
– دي طرازي، فيليب . تاريخ الصحافة العربية (١ – ٤) . بيروت : المطبعة الأدبية، ١٩١٣.
– زخورة، إلياس . مرآة العصر في تاريخ ورسوم أكابر رجال مصر (١ – ٣) . القاهرة، ١٨٩٧، ١٩١٦.
– الزركلي، خير الدين . الأعلام (١ – ٨) . ط ٩ . بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٩٠.
– زكي، عبد الرحمن . أعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر. القاهرة، ١٣٦٦ هـ.
– الزياتي، سليمان الحنفي . كنز الجوهر في تاريخ الأزهر . القاهرة، ١٣٢٠ هـ.
– زيدان، جمصي . تاريخ آداب اللغة العربية (١ – ٤) . القاهرة، ١٩١٣ – ١٩١٤ .
– تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (١ – ٢) . القاهرة ، ١٩٢٢.
– سركيس، يوسف إليان . معجم المطبوعات العربية والمعربة (١ – ١١) . مصر، ١٣٤٦ هـ.
– السندوبي، حسن . أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري . القاهرة، ١٣٢٢ هـ.
– شكري، محمد فؤاد، والعناني، عبد المقصود، ومحمد خليل، سيد . بناء دولة . القاهرة ، ١٣٦٧ هـ.
– شيخو، لويس . الآداب العربية في القرن التاسع عشر ١ – ٢ . بيروت، ١٩٠٨.
– الطهطاوي، أحمد رافع . الثغر الباسم في مناقب أبي قاسم . القاهرة ، ١٣٣٣ هـ.
– طوسون، عمر . البعثات العلمية . الإسكندرية، ١٣٥٣ هـ.
– مبارك، علي . الخطط التوفيقية الجديدة (١ – ٢٠) . القاهرة، ١٣٠٤ – ١٣٠٦ هـ.
– مجاهد، زكي محمد . الأعلام الشرقية في المئة الرابعة الهجرية ١ – ٣. القاهرة، ١٣٦٨ – ١٣٧٤ هـ.
– المراغي، أبو الوفاء . فهرس المكتبة الأزهرية ١ – ٦ . القاهرة ، ١٩٥٠.
– نعمان، ناجي . دليل الصحافة العربية . بيروت : دار نعمان للثقافة، ١٩٨٨.
– وجدي، فريد. موسوعة القرن العشرين (١ – ١٠)

ب – الدوريات

– جريدة الأهرام، ٢/ ٢/ ١٩٢١.
– الملحق الأدبي لجريدة الأخبار، ٢٣/ ١١/ ١٩٦٩
– مجلة روضة المدارس المصرية، السنوات ١ – ٨، جميع الأعداد.
– مجلة الزهراء، ٢:٤٨٥.
– مجلة المقتطف، ٩:١٥، ٥٨:٢٠٤.
– مجلة الهلال، مج٢، ج١٠، مج٣، ج٢.

فن التعريق الرخامي (ورق الإبرو)

الأستاذ بسام داغستاني
رئيس شعبة ترميم المخطوطات
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

يمكن تعريف فن التعاريق الرخامية بأنه «تعويم أحبار ملونة على سائل، واستغلال استقرارها على سطح السائل على شكل بقع لونية بتحويلها إلى هيئات وأشكال يمكن نقلها وطباعتها على الورق بالتماس المباشر».

● يعتمد تعقيد التصميم على أسلوب التعامل مع هذه البقع اللونية وعلى مهارة الصانع وغزارة مخيلته الفنية وعلى نوع تمرسه بهذه الحرفة وإتقانه لها وهل هو محترف أم مجرد هاوٍ، وفي كلتا الحالتين نجد عملية إنتاج الورق المعرق مثيرة إلى حد كبير، تتسم بتنوع رائع حيث تتوصل دائماً إلى نتائج باهرة، سواء اتبعت أساليب محددة منظمة أم طرقاً بسيطة دون تحديد.

ولكي نستطيع الدخول في دراسة هذا الفن لا بد لنا من الرجوع إلى أصوله التاريخية التي يلفها شيء من الغموض وخاصة حيال نشوئه وتطوره.

يحدثنا التاريخ أن هذا الفن بدأ بالظهور في اليابان أو الصين، في القرن الثاني عشر الميلادي، وكان يسمى «سوميناش» ويعني«تعويم الحبر»(١): إذ تطفو الألوان فوق سطح الماء لتظهر بأشكال خلابة، يتم نقلها بواسطة ورق ماص. وقد جاء في أسطورة يابانية أن إتقان هذا النوع من الفن هبة إلهية منحها الإله لشخص يدعى «جيمون هيروبا» لمكافأته على إخلاص عبادته في ضريح «كاتسوجا»(٢).

أما الرأي الآخر حول نشأة هذا الفن فيعود إلى تركستان «آسيا الوسطى»(٣) حيث كانت هذه البلاد مركزاً هاماً للحضارة وقد سمي بـ «أبرو» وتعني فن التعاريق إذ إنها مشتقة من كلمة «أبر» التي وردت في أقدم لغات آسيا الوسطى، وتعني القماش ذا التعاريق أو الورق الذي يستخدم تحديداً لتغليف الكتب المقدسة(٤).

شكل رقم (١)

انتقل هذا الفن من تركستان إلى إيران بواسطة طريق الحرير. وكان يسمى عند الإيرانيين «أبري»، وتعني الكلمة سطح الماء. ثم عرف فيما بعد في بلاد الأناضول باسم «أبرو» إذ دخلت هذه الكلمة اللغة التركية حوالي القرن السادس عشر(٥).

ولقد نقل التجار والدبلوماسيون والمسافرون الأوربيون حرفة «فن الآبرو» من تركيا إلى أوربا حيث

انتشرت بصورة واسعة في إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنكلترا. وقد قال عن هذا الفن فيلسوف القرن السادس عشر السير فرانسيس بيكون: «لدى الأتراك المسلمين فن جميل لتمازج الألوان لا نملك أن نقوم بمثله، رأيتهم يأخذون الألوان الزيتية، ويضعون تشكيلة منها على شكل قطرات، تطفو على سطح الماء، ويحركون الماء قليلاً لإحداث تداخلات لونية متماوجة وبها تعاريق رخامية، وأحياناً تبدو كجلد الحرباء»(٦).

ولقد نشط المسلمون وبرعوا بهذا الفن لقيامهم بالربط بين إتقان الفنون على اختلاف أنواعها والعبادة، إذ جعلوا السمو بفنونهم تقرباً لله عز وجل. وقد انتشر هذا النوع من الفن بين جماعات الصوفية التي تتسم بالتأمل والاستغراق في الجمال الذي وهبه الخالق.

وابتغوا التعبير عن الجمال الإلهي ضمن وسائل فنية عديدة، منها فن الورق الرخامي «الآبرو». إذ انتشرت زوايا وأركان خاصة بجماعات المتصوفة، هدفها تعليم مبادىء هذا الفن الإسلامي بتتلمذ الطلاب على يد أستاذ واحد لتعلم مهارات فنية معينة. وكانوا بعد إتقانها يتابعون الرحلة مع أستاذ آخر ومهارة أخرى، على عكس الفنانين الغربيين الذين أحاطوا هذا الفن بهالة من التكتم والغموض كي ينفردوا بمزايا خاصة، تبقى حكراً عليهم. بينما نجد بالمقابل الكثير من الفنانين المسلمين قد تركوا أعمالاً رائعة دون أن تذيل بتوقيع يشير إلى مبدعها، وذلك امتثالاً لخصال التواضع المتأصلة في نفوسهم.



شكل رقم (٢)

استخدم الورق الرخامي أول ما استخدم خلفيات لعبارات مكتوبة أو لتزيين المساحات الفارغة (الزوايا الأربع للصفحة). أما الاستخدام الرئيسي لها فتمثل في كونها توضع ضمن إطار وتعلق على الجدار بحفاوة بالغة، كما تفخم اليوم اللوحات الزيتية العظيمة.

وفي مرحلة متقدمة دخلت الأوراق الرخامية في تغليف جلود المخطوطات من الداخل على

شكل بطانة. ثم أصبحت توضع هذه الأوراق من الخارج بدلاً من الجلد.

المواد المستخدمة في فن التعريق الرخامي

صمغ الكترا، أصباغ طبيعية، فراش خاصة، حموض، ورق ذو امتصاص جيد، إنفحة.

صمغ الكترا

يُحصل عليه من جذع نبات شوكي ينمو في الأناضول وجبال تركيا وإيران، حيث يتم إحداث شقوق على فروع الشجرة، يتصلب عليه النسغ الخارج من الشق، ويتحول إلى قطع بلون العظام، يتم وضعها بالماء بمعدل ١٠ - ١٥ غ لكل ٣ ليتر مدة ثلاثة أيام. ويصفى الصمغ بعد ذوبانه تماماً بكيس من القماش، ويسكب في الحوض. إذ يكون للمزيج كثافة مماثلة لقوام الحليب(٧).

الأصباغ

وهي صبغات يجري استخلاصها من الأكاسيد المعدنية الطبيعية، حيث تستخلص من الطين بتصفيتها. ومن ثم تطحن لتشكل صباغاً.

الفراشي

تصنع من شعر ذيل الحصان، وتربط حول عصي من نبات الورد مشكلة محيطاً مفرغاً من المركز. تختلف سماكات الفراشي وأطوالها حسب استخدامها.

الحوض

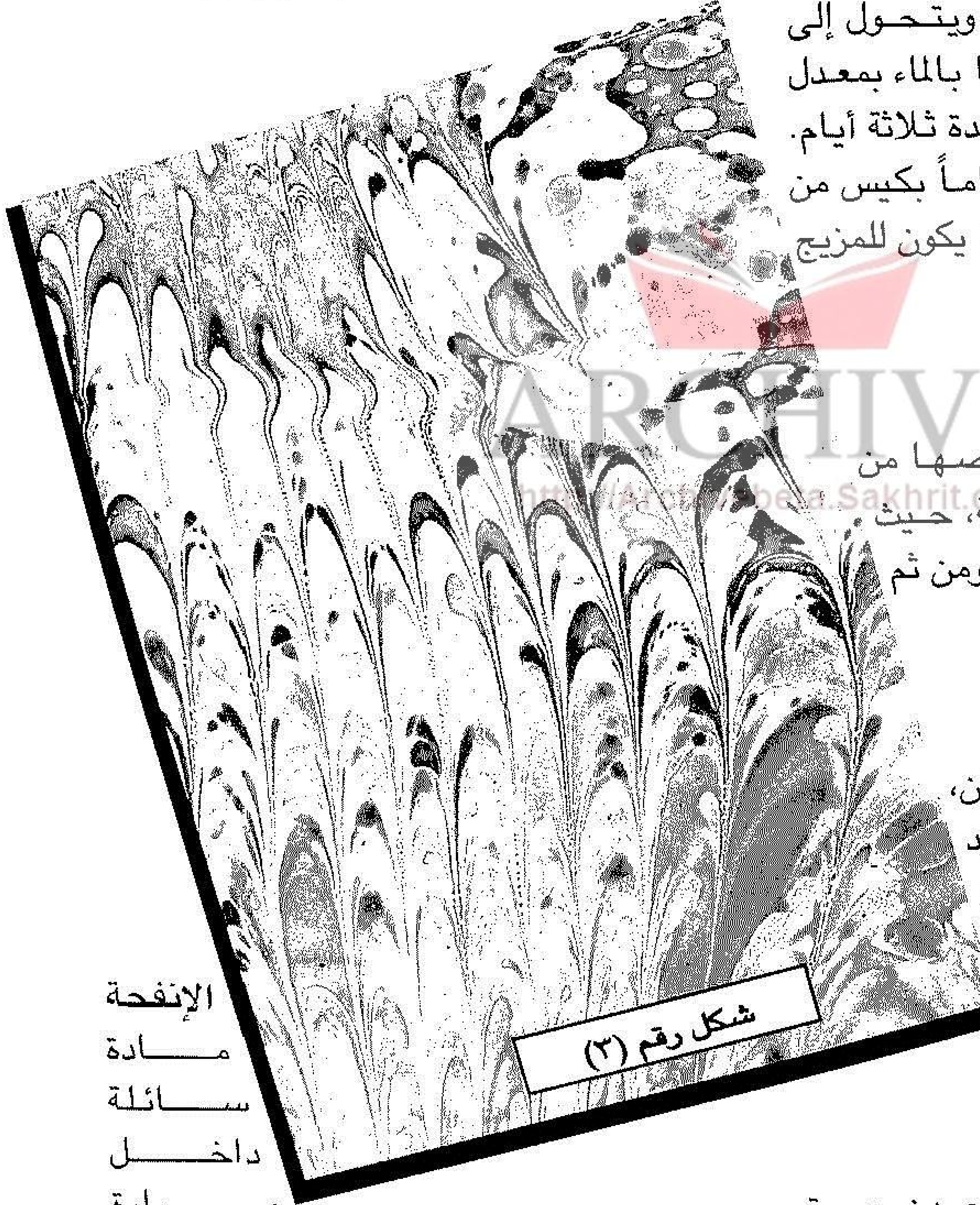
يصنع عادةً من الخشب أو المعدن بعمق يتراوح بين ٤ و٦ سم، بحيث تكون مساحته أكبر قليلاً من قياس الورق.

الماء

يفضل أن يكون ماءً مقطراً وكان الحرفيون قديماً يستخدمون ماء المطر ولكن تلوث الأمطار بالأحماض في الوقت الحالي ألغى استخدامه، للنتائج السلبية التي قد تنجم عن ذلك.

الورق

يجب أن يكون الورق ذا قدرة عالية على الامتصاص خالياً من الأحماض، ونظراً لغلاء هذا النوع ينصح باستخدام ورق بدون لمعة.



شكل رقم (٣)

الإنفحة

مادة سائلة داخل مرارة العجل، وهي أهم مادة يحتاجها فن التعاريق، ويتوجب على الحرفي أن يلم

بطريقة استخدامها إلماماً تاماً، إذ إن سر فن التعاريق يكمن في هذه المادة ووظائفها كما يلي:

أ - ضمان التوتر السطحي للسائل، لكيلا تغرق الأصباغ ولتحقيق تباعد مناسب لنقطة اللون.

ب - منع امتزاج الأصباغ عند استخدام اللون الأزرق مع الأصفر فلا ينتج لوناً أخضر.

جـ - إعطاء درجات مختلفة من اللون نفسه.

د - تثبيت الأصباغ على الورق.

طريقة العمل في فن التعاريق الرخامية

هناك تشابه كبير بين عمليتي الطبخ وإنتاج التعاريق الرخامية. إذ إنه في الحالتين يتعين تقديم وصفة دقيقة تراعي النسب والمقادير. ويتم تنفيذ العمل تبعاً لعمليات توازن دقيقة تراعي عدة أمور ضمن توافق دقيق. ولكي يخرج العمل متكاملاً يجب الالتزام بقواعد العمل على نحو دقيق، وهي النظافة التامة، كثافة الماء المصمغ، الموازنة بين الصباغ ومادة الإنفحة. فهذه أمور أساسية قد تتطلب وقتاً طويلاً للتوصل إلى توازن فيما بينها للنجاح في التنفيذ. وبمجرد الإتقان في استخدام هذه المواد تصبح عملية التعاريق سهلة الإنجاز سريعة، مما يجعل عملية الإنتاج أكثر مطواعية.

طريقة الصنع

توضع بقع من الأصباغ على سطح الماء بواسطة الفراشي حسب الكمية ودرجة اللون المطلوبتين. ويراعى أن لا تكون الألوان شديدة التركيز وتوضع قطرات بعضها فوق بعض بحيث نحصل على الشكل الأساسي في التعريق الرخامي، ومن ثم يبدأ بالتشكيل كما يراد وكما يأتي:

شكل رقم (٤)

○ **شكل (١)** إمرار عود رفيع ضمن اللون جيئةً وذهاباً بخطوط متوازية.

○ **شكل (٢)** إحداث مداخلة عرضية بواسطة مشط على الشكل (١) وبهذا نحصل على الشكل المشط.

○ **شكل (٣)** إحداث تقاطع آخر مع المداخلة العرضية بطريقة الشكل (١) نفسها حيث نحصل على شكل الشال.

○ **شكل (٤)** إحداث خط ملتف يتجه من المحيط الخارجي نحو المركز ونحصل على شكل عش العندليب.

○ **شكل (٥)** إحداث بقع كبيرة بألوان مختلفة حيث نحصل على تعاريق تشبه الرخام.

ومن هذه القاعدة يمكن الانطلاق وابتكار نماذج عديدة وجميلة تبهر الناظر بشدة جمالها.

وقد ابتكر أحد الحرفيين المشهورين وهو محمد أفندي خطيب مسجد آيا صوفيا المتوفى سنة ١٧٧٣ م نموذجاً فريداً من نوعه وهو تعريق الزهور، عرف فيما بعد بنموذج الخطيب.

إذاً عند التحضير التام للخطة الإبداعية وجاهزية جميع الظروف يتم إنتاج النماذج المختلفة الواحد تلو الآخر بما لا يزيد عن دقائق لا تتجاوز الخمس لكل نموذج، حيث ستخلب الألوان والصور والأشكال اللامتناهية في تزاوجاتها لب الناظر، فلا يعود يعبأ بالوقت بتاتاً.

في أحد الأمسيات بدأ أستاذ التعريق الراحل نيكمتين أوكايا بصناعة الورق المعرق وبينما هو يعمل إذ سمع صوتاً من الخارج فظن أنه صوت بائع متجول يعمل في الليل، ولكنه دهش حينما علم أنه صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر (٨).

من هذا العرض السريع نتبين مدى رقي هذا الفن وأهميته والدور الذي لعبه في وقت من الأوقات. ومن المؤسف في وقتنا الحاضر أن هذا الفن العريق والسامي قد نسي، وتجاهله معظم الفنانين، وطغت النظرة الفنية الحديثة على أعمالهم.

وانطلاقاً من هذه الأهمية بدأ مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - في شعبة ترميم المخطوطات بدراسة هذا الفن الإسلامي دراسة واسعة، تشمل النواحي التاريخية والفنية والعملية ليتمكن من الدخول إلى خفاياه وإعطائه حقه من الاهتمام والتقدير. ودون ذلك صعوبات كثيرة في البحث والدراسة والتطبيق لقلة المراجع التاريخية والفنية التي بحثت هذا الموضوع.

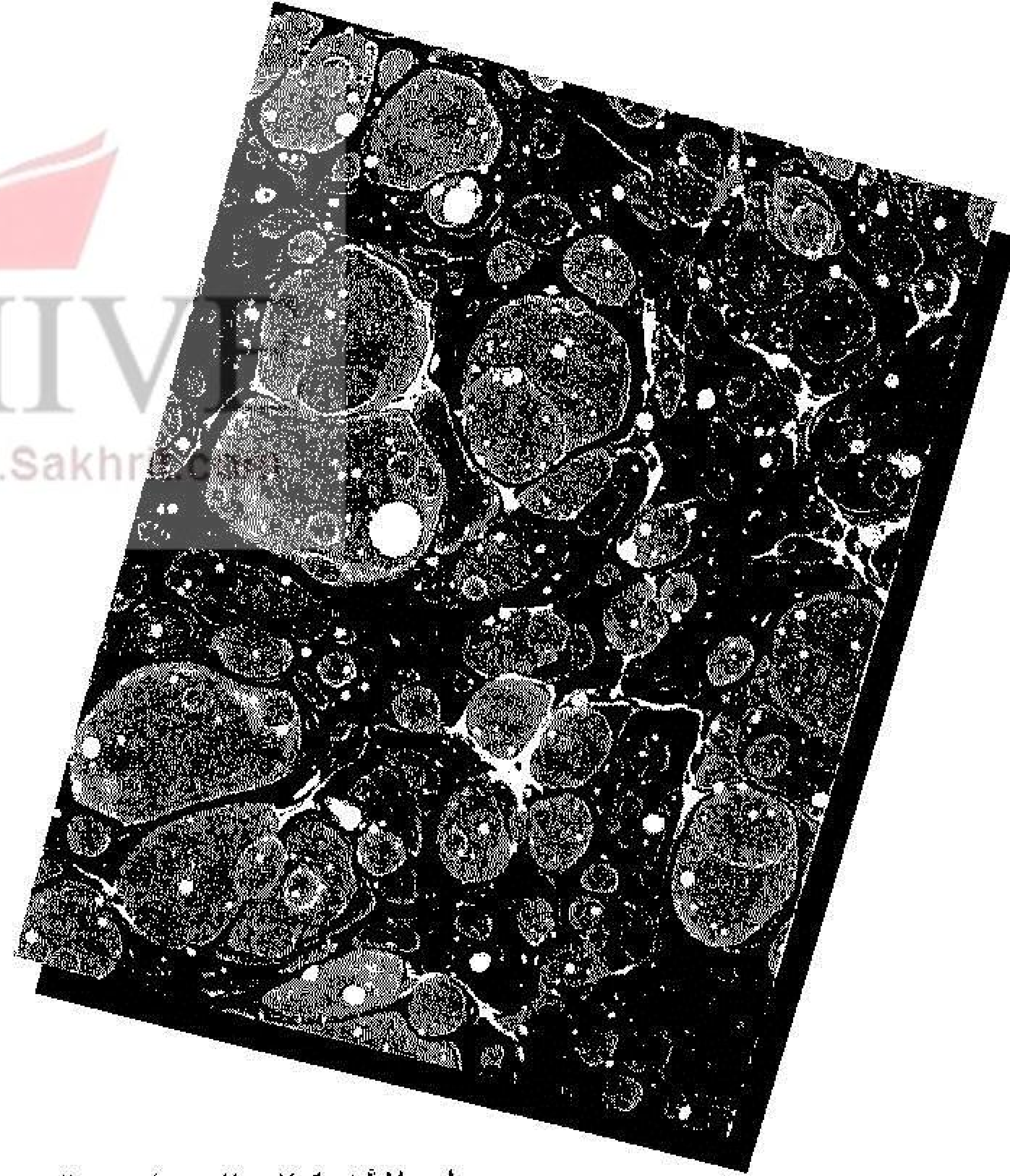
فكان لا بد من المحاولة والخطأ لاكتشاف هذا الفن والاطلاع على البحوث الفردية



شكل رقم (٥)

لبعض المهتمين التي لم نستفد منها إلا الشيء اليسير؛ لأن سر هذه الصنعة مازال حبيس صدور أصحابها.

وتجلت الصعوبات التي واجهتنا في الكشف عن مواد اللون القديم وطريقة تحضيره. وأجريت مراسلات عديدة مع منفذي هذه الصنعة على الطريقة القديمة من أجل توضيح بعض الخفايا، فلم يكن هناك طائل. فلذلك تمّ اللجوء إلى المواد المتوافرة بين أيدينا، فأجرينا بها مئات التجارب العملية حتى استطعنا تحضير ألوان من أصباغ ترابية مخلوطة مع مواد زيتية بترولية، أعطت نتائج رائعة، استطعنا من خلالها تنفيذ



معظم الأشكال التقليدية وبألوان زاهية وجميلة. ولكن يبقى الأصل في العمل التاريخي هو المهم بكل نواحيه.

ونحن نعمل جاهدين للوصول إلى أصول هذا الفن بحذافيره وتنفيذه كما كان الأجداد يعملون به بمواده وطرقه حريصين على تجديده وتطويره. ومن هذا الحرص أيضاً بدأ الاهتمام بدراسة التحضير لمعرض فني يختص بفن التعاريق الرخامية، يتضمن هذا المعرض محاضرة تعريفية بهذا الفن الإسلامي إضافة إلى مجموعة من اللوحات المنفذة بشعبة الترميم مع تنفيذ بعض النماذج بشكل عملي أمام الجمهور.

إن الجهد المبذول لإحياء هذا الفن وتطويره وما يحتاجه هذا الإحياء إلى دقة وعناية فائقة وصبر وتحمل وأناة ما هو إلا بعض وفاء نقدمه بتواضع لآبائنا وأجدادنا على ما تركوه لنا من تراث، يحق له أن يظهر، ويحق لنا أن نزهو به ونفاخر راجين الله عز وجل التوفيق والسداد.

الحواشي

١ - Diane Vogel Maurer & Paul Maurer,Marbling . p.12

٢ - المرجع السابق.

٣ - بحث Hikmet Barutcugi من كتاب صادر عن الندوة الدولية حول الابتكار في الحرف اليدوية الإسلامية التي عقدت في إسلام آباد، ١٠ - ١٢ أكتوبر ١٩٩٤، ص ٦٥.

٤ - المرجع السابق.

٥ - المرجع السابق.

٦ - Diane , Marbling . op.cit, P 15.

٧ - يستخدم صمغ الكترا بصورة واسعة علاجاً للاضطرابات المعدة والحلق إضافة إلى دخوله رفي صناعة المواد التجميلية وفي صناعة الأقمشة.

٨ - بحث للأستاذ Barutcugi مرجع سابق، ص ٦٨.

شعر

عودة المجنون

الشاعر عبدالرازق مصطفى دعسان البرغوثي
عمّان - الأردن

ليلى، أَتيتُكِ ظامئًا، رُحْماكِ … هلا احتفيْتِ بِمُدْنَفٍ وافاكِ
قيسٌ أنا، هلا ذكرتِ عهودَهُ … أمْ أنَّ طولَ فراقنا أنساكِ ؟
من بعد ما عَقَدَتْ قرانَكِ (عامرٌ) … لبني ثقيفٍ ما هَجَرْتُ بُكاكِ
وغدوتُ مسلوبَ الجَنانِ مُشَرَّدًا … أُحصي اللّيالي حالمًا بلقاكِ
إنّي لأعلنُ أنَّ ذلكَ باطلٌ … قد لفّقوهُ، ولم يكنْ بِرِضاكِ
فليسمعوها صرخةً أبديّةً : … إنّي وحقّكِ ما سَلَوْتُ هَواكِ
ليْلى حنانَكِ بالوُقوفِ دقيقةً … لترى بنا فِعْلَ النوى عيناكِ
وتودّعي شَبَحًا أضاعَ حياتَهُ … يرجو لقاءَكِ زادُهُ ذكراكِ
كم مرةٍ خضتُ البحارَ مُجازِفًا … وسقطتُ دونكِ طُعْمةَ الأسماكِ
ولَكَمْ تخذْتُ من الشراعِ مطيّةً … أعلو السّحابَ مؤمِّلاً لقياكِ
ولَكَمْ عَبَرْتُ النهرَ نحوكِ زاحفًا … مِنْ بَيْنِ أسلاكٍ إلى أسلاكِ
فتحاملتْ ليْلى تُجيبُ، فَخانَها … عبراتُ حُزْنٍ من فؤادٍ باكِ :
قيسٌ، فَدَيْتُكَ من مُحبٍّ ظالمٍ … أَفأَنْتَ ممَّا أشتكيه الشاكي ؟
واللّهِ ما ضَيّعْتُ عهدَكَ لحظةً … لوْ كانَ في حفظ العهودِ هلاكي
وكذاكَ ما أسْكنتُ غيرَكَ كائنًا … منّي الفؤادَ، وخالقِ الأفلاكِ

لكِنْ أراكَ أتيْتَ وحدَكَ، أينَ هُمْ فرسانُ قومي يُعجلون فكاكي ؟

أتُراكَ جئْتَ طليعةً وأعاقَهُمْ عِظَمُ الحُشودِ لخوضِ طولِ عراكِ ؟

أمْ أنَّ صوتي لم يَصِلْ أسماعَهُمْ ؟ فليعذروا من غُلَّ بالأَشْراكِ

فأجابَها : يكفيك فضحُ عُيوبِنا هذا التساؤلُ زادَ من إرباكي

إنّي وحيدٌ قد أتيتك منجداً وشهدتُ قومَكَ يَسْمعونَ نداكِ

وتركتُ ذُبياناً وعَبْساً إخوةً رَصّوا الصّفوفَ فزغردي بُشْراكِ

لكنْ رُوَيْدَكِ، ما خلاصكِ همَّهُمْ بَلْ سَحْقَ منْ في سِرِّهِ ناجاكِ

حَجَبوا تُخومَ بني ثقيفٍ كُلَّها دُوني وسَدّوا الدَّرْبَ بالأشواكِ

ورأيتُ مَنْ بالأمسِ كانَ مُوَهِّمي بالدَّعمِ جاءَ اليومَ بَيْنَ عِداكِ

وَتَعاهَدوا ألا يَتِمَّ لقاؤنا إلا وثالثُنا المَنونُ حِذاكِ

فَأنا بِقُرْبِكِ في ثقيفٍ شاعرٌ بالمَوْتِ يرصُدُني بِكلِّ حِراكِ

وَكذاكَ أعلمُ إنْ رجعتُ لعامرٍ سأرى هنالكَ ما أرى بِحِماكِ

فَلَكَمْ رماني الجانبانِ سِهامَهُمْ فَوَجَدْتُ قَوْمي أَمْهَرَ الفُتّاكِ

وَلِذا عزمتُ على وقوعِ مَنيّتي بِيَدَيْ عدوٍّ بالعذابِ رَماكِ

فلعلَّ سهمي إنْ رميتُ، أصابَهُ لا أن يُصيبَ إذا رَجَعْتُ، أخاكِ

ولعلَّ في مَوْتي إغاظَةَ مُغْرِضٍ حاكَ الدّسائسَ بيننا، أفّاكِ

كمْ قالَ عنّي : باعَها ورمى بها أوْ أَنّني يا ليلَ، رمتُ سواكِ

وهو الذي ما انفكَّ فيكِ يلومُني دَعْها وخُذْ ما شئْتَ منْ أمْلاكِ

فأجبتُهُ : وفّرْ عناءَكَ عاذلي ؛ قيْسٌ وليْلى عُلّقا بشِباكِ

مِنْ عهدِ كنعانٍ غدوْنا لُحْمَةً رَبّاهُ زِدْ بِحِبالِها اسْتِمْساكي

***

خَفقَ الفؤادُ فإذْ بضوءٍ مُقبلٍ ... أَوَ ذاكَ برقٌ أَمْ عيونُ عداكِ ؟

ها قد رأيتُك بعدَ دهرٍ خلتُهُ ... مليونَ عامٍ ما وطئتُ ثَراكِ

عينانِ خضراوان مثلُ رُبوعِنا ... ودمُ الشهادةِ وَجنتيكِ يُحاكي

والشَّعرُ يا ليلى أعادَ لخاطري ... سُودَ الليالي حينَ ذقتُ جفاكِ

والوَجْهُ مثل القدس أبيضُ طاهرٌ ... سبحانَ مَنْ هذا الجمالَ حَباكِ !!

أعْطاكِ ألوانًا يُشكِّلُ نَظْمُها ... عَلَمًا يُزيِّنُ بالفَخارِ رُباكِ

هَمستْ تقولُ : أَما لصوتِكَ هدأةٌ ... أخشى عليكَ الخصْمَ، قالَ : فداكِ !

قالت : وما يُجدي سَخاؤُكَ واحدًا ... بدمٍ، أعزَّ من البريّةِ، زاكِ

فأجابَ للرحمنِ أبْسُطُ حُجَّتي ... أَنّي بذلتُ الجُهْدَ في بَلْواكِ

أأظلُّ أعْبثُ بالقريضِ مجاهدًا ... والخصمُ يُبْهجُ نفسَهُ بأذاكِ

ليلى، الشهادةُ قد دعَتْ أحبابَها ... ما كانَ أحرى أنْ يُجابَ نداكِ

اني لأوثرُ في ربوعِكِ ميتةً ... لا أنْ أخلَّدَ تحتَ غيرِ سَماكِ

***

ومَشى كما الصفصافِ يَسْمُقُ شامخًا ... بمهابةٍ تَسْمو على النُّسّاكِ

والحُلْمُ يعمُرُهُ بنيْلِ شهادةٍ ... فسعى لها بالحِسِّ والإدراكِ

واليومَ لا ندري أقيسٌ عائدٌ ... أمْ هل أراحَ ضميرَهُ بِهلاكِ

ما عادَ مهدورَ الدماءِ مطاردًا ... بخيولِ خصمٍ أوْ أخٍ شكّاكِ

ليلى عزاؤكِ أنَّ شمسَ جهادِهِ ... سَطَعَتْ بليلِ الراكعينَ، كفاكِ

قولي لأمتهِ : كَرِهْتَ حياتَهُ ... ومماتَهُ، والآنَ هل أرضاكِ

ها قد ثوى في الحُوتِ يحكي يونُسًا ... إنْ عاشَ عاشَ، وإنْ يمُتْ فهناكِ